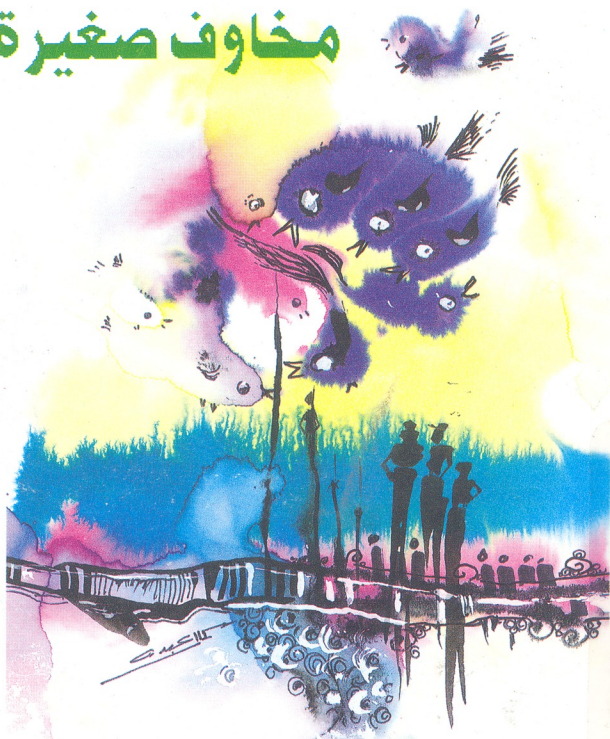


مخاوف صغيرة



إهداء 2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

أصوات أدبية

۷۲



الهيئة العامة لقصور الثقافة

مخاوف صغيرة

قصص

محمد المندى

۲۲ ستمبر ۱۹۹۴

الغلاف تصميم: كمال عبده

مستشارو التحرير

د. احمد السعدنى

فؤاد حجازى

د. زكريا عنانى

فاروق حسان

المراسلات: باسم مدير التحرير على العنوان التالى
١٦ شارع أمين سامى - القصر العينى - القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١

اصوات أدبية

سلسلة إسبوعية

تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

ورئيس التحرير

حسين مهران

نائب رئيس التحرير

على أبو شادي

المستشار الفني

محمد بغدادى

مدير التحرير

محمد كشيك

مدير التحرير التنفيذي

أحمد عبد الرازق أبو العلا

سوء تفاهم

قمت بزيارة خاطفة إلى قريتي القريبة .. هناك .. علمت أن جارتى القديمة - جمالات - مريضة جدا .. زرتها .. شاع نبأ الزيارة في كل أنحاء القرية ..

دار بين الخبثاء لفظ كثيف حول هذه الزيارة . قال بعضهم إنه كان على علاقة غرامية بها منذ أيام المراهقة .. وأضاف آخرون على ذلك ما شاعت لهم أخيلتهم المريضة أن يضيفوا .. من حب .. وشوق .. وعناق حار !.. ولا أدري ما الذى أضافوه غير ذلك !.

ولم يكن غريباً إذن أن يسرى نبأ هذه الزيارة كالنار المجنونة .. حتى استقر النبأ - بكل إضافاته - إلى مسامع زوجتى العزيزة.

عندما عدت إلى البيت - رأيت عيني زوجتى منكسرتين ..

تسحان دمعاً . رابنى الأمر . لم أنطق بحرف . أمسكت بكتاب
وانشغلت بالقراءة .. لكن صدمنى صوتها .. قالت بنغمات خنفاء :

- ألا تريد أن تنام يا زوجى العزيز؟!

لم أرد . قالت فى حشجة مخيفة :

- أمازلت تفكر فيها ؟!

نظرت إلى أشعة شمس الصيف الحارقة التى اندلعت من
النافذة .. ثم قلت بشئ من القرف :

- تقصدين .. من ؟!

لمعت عينها ببريق ثاقب وهى تقول :

- جارتك القديمة .. ذات الربيع الواحد والستين !

لم أرد .. ومرة أخرى .. تقابلت نظرات زوجتى المتساعلة
المحمومة بنظراتى .. أحسست بقلبى يكاد ينخلع . قمت .
وبخلت غرفتى . أغلقت الباب على نفسى .. إنها الغرفة التى
أحب أن أقرأ أو أكتب فيها .. أحرزنى هذا الاتهام الظالم ..
اغرورقت عيني بالدموع لسوء الفهم الذى أوقعت زوجتى نفسها
فيه .

إن زوجتى وفية .. طيبة .. طاهرة .. نقية .. عاشرتنى لسنوات

طويلة.. وفى نهاية المطاف تظن بى السوء (!)

ظنت أننى قد عدت بالفعل إلى جارتى القديمة..

ألمنى شكها القاتل.. المدمر لكل القيم الحلوة التى مرت فى حياتنا الجميلة.. دخلت غرفتى متسللة. جلست.. كان صدرها يعلو ويهبط وهى توجه لى اتهامات غريبة.. وشك أملاه عليها خيالها الواسع..

بكيت.. كان البكاء هو المهرب الوحيد من حرج الموقف وفوران العاطفة.. والشك .. الشك القاتل المميت!

تركنتنى عندما وجدت أن الدموع هى وسيلتى الوحيدة للرد عليها.. وعند الظهيرة فوجئت بزوجتى تدخل غرفتى بخطوات متلصصة.. كانت دموعها تسيل فوق خديها بلا انقطاع.. وكان جسمها يهتز من الشهقات المكبوتة التى تكشف عما تعاني من أسف وندم.. قالت هامسة فى رجاء :

- رضوان أأغضبتك؟!

مسحت دموعى بطرف منديل. عادت تسألنى فى خجل:

- أأغضبتك يا رضوان؟!

قلت:

- لا ..

قالت:

- مالذى يبيكك إذن ؟!

قلت فى نبرات مرتجفة :

- كلا، لن أبكى بعد الآن. من فضلك.. دعينى أخرج.

مسحت دموعى. إنطلقت إلى الخارج. مشيت فى الشوارع
على غير هدى فى عز الهجير.. الشمس تكاد تحرق رأسى ..
لكن الأسف الذى أبدته زوجتى جعلنى أحس بأن أعصابى قد
هدأت.

عدت إلى المنزل لأجد زوجتى الحبيبة تتلقانى بالأسف
الشديد على الشكوك التى راودتها.. وقبلتها فوق جبينها.. قبله
الزوج الذى يحب زوجته.. قبلتها بكل الحب وبكل الإخلاص..
ورأيت موجة من الدموع.. تكاد تطفر من عينيها. وصبها
الحياء.

علبة الكبريت

عاد من الخارج فى — لمساء. بحث عن علبة الكبريت فلم
يجـها. اصطدمت يده بوابور الغاز. برطم بكلمات لم يعرف
هو نفسه لها أى معنى..

كانت علبة الكبريت تحتل ركنها المألوف.. هنا.. جنب حلة
الطبيخ ! فأين ذهبت ؟!. عاد مرة أخرى يبرطم وهو يلهث
كالمختنق : إنه كلب.. كلب؟!.. أبوه .. وابن كلب كمان !

لماذا لم يتزوج بامرأة تنظم له وقته ؟!.. ترتب له حياة
مريحة ؟!.. تجهز له الأكل .. وتغسل له الملابس؟!

سمع خبطاً فوق الباب.. قال «خورشيد» من آخر الغرفة
المعتمة :

— من .. من بالخارج ؟!

لم يسمع أحدا .. تمتم بعصبيه:

- هل أصابنى الطرش ؟! أم ماذا .. ؟!
لم يكن يريد أن يلتقى بأحد وهو فى هذا الكرب..
فلانور .. ولا أكل.. ولا حتى شاي أو سكر..
وعاد الطرق مرة أخرى بقوة .. رد وهو يطلق ضحكة
ساخرة :

- لا يوجد هنا أحد (!)
سمع صوتا يشبه صوت جارته عائشة.. تلك السيدة
الهادئة الوديدة التى ترملت منذ أكثر من عام :
- إفتح يا خورشيد ..
همهم لنفسه :

- هى جارته عائشة، صاحبة الدكان.. ماذا تريد ؟! بيد
مرتعشة ففتح الباب. طالعه وجه عائشة المريح وهى تمد له يدها
بخطاب تسلمته عند الظهر من ساعى البريد :
- خد يا خويا .. جواب وصلك..

مدت بصرها إلى الغرفة المظلمة. ولاحظت الارتباك البادى
عليه.. وهى تمد له يدها بالخطاب :

- مالذى جرى لك يا خورشيد ؟! ألا تجد حتى الكبريت ؟!

إندفع فى الكلام !

- تمام !! يبينو أن الله غاضب على (!)

وهى تطلق ضحكة ذات معنى :

- لا يا خورشيد . إن الله لم يغضب عليك، ولكنك أنت

الغاضب على نفسك (!) لماذا لا تبحث لك عن زوجة تنظم لك

حياتك يا خورشيد !!!

أطرق :

- طاف هذا ببالى من لحظة.. ولكن أين هى المرأة التى

ترضى بى !!!

رمقته وهى تمد له يدها بعلمة كبريت :

- كثيرات . كثيرات يا خورشيد. فقط عليك أن تفتح عينيك

وستجد حولك أكثر من واحدة تليق لك، وترضى بك (!) أم أنك يا

خورشيد لا تريد أن تفهم !!!

لمح نظرة إعجاب تطل من عينيها وهى تطرق إلي الأرض.

تمتم فى رنة فرح :

- أه .. فهمت (!)

إعترفت عائشة لنفسها أن دنياها قد بدأت تزهر من جديد..

إنساب شوق جسمه إليها كومضة من نور .. قالت وهي
تتماسك:

– مالذى فهمته يا خورشيد !!؟

لم يرد .. وفى الليلة التالية كانت لمبة غاز نظيفة تضىء
الغرفة !!!

حكايات بنت شقية !

إنتهى مولد السيد البدوى . كان قد لمحها أكثر من مرة..
بنت . جميلة كزهرة فى بستان. فى عينيها حور .. وفى وجهها
كل ملامح البنت الشقية. أعجبت على الفور، وجد نفسه يقترب
منها .. أحس بقلبه ينجذب إليها .. وخيل إليه أنها هى قد انجذبت
إليه .. فقد لاحظ فوق شفيتها القرمزيتين ابتسامة كاشراقة
الفجر. شجعتة ابتسامتها الحلوة. دار بينهما حديث خاطف.
عرف - منها - أنها تخرجت من معهد فنى ، وأنها تشغل نفسها
بأشياء غريبة .. وأنها - هى نفسها - تحار فى أن تجد لها
تفسيرا . سألها :

- أمتزوجة أنت ؟!

طالعه وجه ضحوك :

- لا .. اسمى الهام، ومازالت أنسة !!

عاد مرة أخرى يسأل :

- أيجاد شاب فى حياتك؟!

أجاب بسرعة :

- أبدا أبدا . حتى فتشنى (!)

قالت ذلك وضحكت . أسعده هذا المرح البادى عليها ،

قال فى مرح :

- يخيلى إلى أننى محظوظ جداً .

إنفجرت شفتاها عن بسمة حلوة . أحس أنها احتكت به أكثر
من مرة . لم يهتم . عاد يقول :

- اسمى كمال .. أعمل مهندساً فى منطقة خطيرة . أنوق علقم
الموت فى كل ساعة .. بل فى كل لحظة . لست متزوجاً .. ولا
توجد امرأة فى حياتى . أيمكن أن أتقدم لطلب يدك؟!

حملقت ذاهلة فيه . ثم احتكت به مرة أخرى .. بعدها أجابت
فى رنة فرح :

- أجل أن هذا يسعدنى (!)

لمح دمعة الفرح تبرق فوق خدها . إذن هى راغبة فيه . قال :

- لو سمحت .. أريد العنوان ..

دست فى يده ورقة وانصرفت كغزال شاردا ! قبل الورقة .. ثم

وضعها فوق صدره.. وهمس لنفسه متغنياً فى حبور : ضاع
القلب بالأعين السود شوقاً ! ليتنى نسمة على خدها !.. متى
تزف إليه؟ متى ينفيس من مشاعره المحتبسة بقبلات يمطر بها
هذا الجسم البلى طويلاً وعرضاً؟

الآن لا ينبغي أن نفلت منه الفرصة !! أسرع إلى العنوان
كما الطير المهاجر . وجد نفسه يقف أمام بيت صغير فى حارة
ضيقة : فقيرة هى إذن ؟ لا بأس !.. شاهد سيدة تقف أمام
باب الدار .. تقدم..

- مساء الخير .. أريد أن أسأل عن فتاة اسمها إلهام..
أجابت المرأة :

- هى فتاة جميلة وتقيم هنا .. أليس كذلك ؟
- أجل .. أريد أن أتقدم لطلب يدها .. ولكن .. كيف عرفت ؟
قالت السيدة فى اكتئاب واضح :

- هى ابنتى ! لقد أتعبتنى شقاوتها أوجعت قلبي.. مادمت
تريد أن تقتربن بها فإن من واجبي أن أصارحك.. إنها - ياولدى -
مصابة بداء غريب اسمه داء النسل ! هه.. ماذا قلت ؟
شعر كأن سن مطواة ينغرس فى قفاه. غامت المرثيات أمام

بصره. قال فى همس :

- وأين هى الآن ؟!

أشارت المرأة إلى نافذة مضيئة وهمست :

- تجدها خلف هذه النافذة المضيئة ، إذهب إليها .. قريباً

جاءت تويته على يدك .. إنها فتاة شقية .. ولكنها حلوة !

مشى خطوتين ثم توقف وراح يرمق النافذة بكل الأسى

والحزن .. ثم شعر بأن قدميه لم تعد تقويان على المسير ..

فتاة أجنبية !

ما الذى كان ينقصه ؟ ربما فتاة جميلة مثل جارته جانيت! فقد حركت كوامن الحب فى قلبه. أشعلت فيه جنوة لا تخدم .. فهى فى مجموعها تبدو كفراشة جميلة..

كان يراها كل يوم وهى تقف فى الشرفة التى تجاور شرفة مسكنه . تخرج إليها فى الصباح الباكر، ثم تستند بأناملها البضة فوق السياج، وتستنشق الهواء النقى بعمق .. وكان يعرف أنها «أجنبية» تعيش مع أسرتها فى الشقة المجاورة لشقته منذ سنوات ...

رأها وهى فتاة يانعة تذهب إلى مدرسة «الفرير» بملابسها القصيرة الزرقاء . وكان دائماً ينتظرها حتى تعود . فتاة مشرقة

الوجه . تضحك بسبب ولغير سبب.. كأنها خلقت لتبدو باسمه لكل عين. تومئ برأسها - الذى يتوجه شعر أشقر جميل - لبواب العمارة أو لأى إنسان آخر تصادفه .. فى تحية رقيقة تعرب عن أدب جم قل أن يتوافر عند فتاة أجنبية !

وأنهت «جانيت» الدراسة وأصبحت فتاة مكتملة الأنوثة ، فيها من الاغراء ما يجعل الشباب يحس بالدوار : الدوار من الجمال الطبيعى الذى لم يتلوث بالمساحيق. الجمال الذى أبدعه الخالق.. وتفنن فى صنعه على هيئة مخلوق !

فتاة أجنبية ! قد تكون فرنسية .. أو بلجيكية .. أو .. أو غير ذلك من مختلف الجنسيات التى استوعبتها قاهرة المعز لدين الله، وأغدقت عليهم الكثير من خيراتها التى لا تنفذ!!

ولم يجد «أحمد» غضاضة فى الوقوف أمامها ما شاء له هواه . يستجلى طلعتها التى تثير كوامن الإحساس بالجمال.. إلى أن شاهدها وهى تفتح بحور العشق أمام الجميع (!) رأى عددا من الشباب «من بنى جنسها» ظهوروا فجأة فى حياتها كالنبات الشيطانى ..

غامت المريثات أمام عينيه. احتدمت الغيرة فى نفسه .. وبدأ ينظر إليها بغير قليل من الضيق. إنها أحاسيس تعترك فى

أعماق الإنسان وليس من السهولة أن يتغلب عليها حتى ولو كان
الأمل عنده أوهى من خيوط العنكبوت !!

* * *

وبعد ليلة كلها أرق قال لنفسه مواسيا :

- ولماذا الغيرة !!؟ ولماذا أتغزل أصلاً فى مفاتنها !!؟

وكانما ارتاح لهذا الخاطر المفاجئ، فانصرف غضبه.. ومع
ذلك فقد جال برأسه سؤال: أيجب جارته الأجنبية!!؟ أحس بهذا
السؤال يقف فى برأسه كلوح من تلج، وكاد يبتسم ساخراً من
نفسه، إن جانبى -على كل حال -ليست مناسبة له، فهو مهندس
مصرى وهى فتاة أجنبية.. كل ما فى الأمر أن الخيال لعب برأسه
إلى درجة الحب.. ثم أضنته الغيرة مع بقية المشاعر التى
يخضع لها الإنسان..

فى الصباح المبكر من اليوم التالى سمع وقع أقدام جارته
وهى تدب فوق خشب الشرفة.. فاستخفه الطرب وهو يخرج إلى
الشرفة بجلباب النوم !.. لقد ظهرت فى الموجد كعروس
مجلوة.. كال فجر ينبثق بنوره الأبلج !.. إلتفت نحوه وهزت رأسها
تحية، فانفرجت شفتاه عن بسمه قريرة كأنه اجتخين عروساً
وردت من جنة عدن !

لكن .. لطمة الـامس مازالت «مخيشة» فى رأسه، ومع ذلك
فقد هن رأسه تحية لصاحبة أجمل وجه رآته عيناه..

كان وجهها أجمل بكثير من الأفق اللـازوردى، وكان صوتها
أكثر شجواً من زقزقة العـصافير وهى تبحث عن أعشاشها فى
أعلى الشجر..

كانت أشعة الشمس قد بدأت تنعكس على صفحة النيل فتثير
رقرقة من النور كذهب يتوهج داخل مرجل، مرة أخرى، التفتت
إلى أحمد وقالت له بصوت عذب :

- صباح الخير يا أحمد !

هتف من أعماقه: أخيراً.. وقعت المعجزة ! إن جارته الفاتنة
جانيت تلقى عليه تحية الصباح بغير تكلف.. إذن، فهى تبغى
الوصال !.. وشعر بقلبه يركض داخل صدره كصاروخ ينطلق
بسرعة الضوء !.. كان الأمر - بالنسبة له - واضحاً وجلياً بلا
أدنى لبس!!.. أو كما يقول حضرات العشاق: نظرة.. فأبتسامة ..
فسلام .. فكلام .. فموعد .. فلقاء ..

أو ليس هذا ما يقوله أساطين الحب والغرام !!!

- يا فرحتك يا أحمد ، لقد أصبحت لك «قطة» ولا كل القطط،
قطة رائعة الجمال.. قطة مستوردة من بلاد العم سام ! كل ما

فيها ناعم ومشرق وبض و.. وجميل! إن ابتسامتها الخلابة،
وعينيها الضاحكتين.. ولسانها الصادق! وقلبها الجري.. كل
ذلك سيجعل منه «فالتينو» القرن العشرين!!
وقضى أحمد ليلته في أحلام وردية ..

* * *

في الصباح الباكر ذهب أحمد إلى عمته الثرية في المغربلين
وسرد لها قصة حبه لجارته - جانيت - بعبارات رقيقة ممزوجة
بالاحترام. قال :

- يا عمتي . إن جانيت تمتلك قلباً من ذهب، وأنه يعتقد
إعتقاداً راسخاً بأن هذه البنت تبادله الحب، إذ ليس هناك ما
يجبرها على أن تنتظر له وهي باسمه الوجه، أو أن تقف قبالة
في الشرفة ساعات طويلة.. وأن كل الدلائل تشير إلى أنها تحبه
و.. وأنه يحس إحساساً قوياً بأن جانيت.. وجانيت وحدها ،
سوف تغير مجرى حياته كمهندس مرموق !

وضحكت العمة العجوز وقالت ساخرة :

- جانيت مين دى يا ولد اللى انت تحكى لى عليها ؟! يا ولد
.. لا ترهن قلبك عند فتاة مجهولة النسب !

حاول أحمد أن يوهم العمة الحيزيون بأنه لا يمكن أن يكذب

عليها، وأن قصته حقيقية و.

لكن العمة قاطعته في ضيق :

- ولد .. لا فائدة من الكلام من هذا الجنين: إن هذه البنت ليست طبيعية ، وربما تريد أن توقعك في حبائلها لغرض تضمنه في نفسها.

... إنها يا ...

- ولد .. إنتهى اللقاء !!

* * *

عاد أحمد إلى البيت يجر أذيال الخيبة وهو الذي كان ينتظر مباركة عمته الثرية لتمده بالقليل من المال . إن عمته «أروية» ما في ذلك شك.. لكن .. من أذراها أن «جانيت» فتاة - مُلعب - ١٩: إنه لن يأخذ بكلام عمته الطاعنة في السن .. لقد شامت أفكارها، ولم تدرك أنه - كـمهندس - يحتاج إلى فتاة مودرن مثل جانيت .. سيعقد محادثاته معها رغم أنف عمته الحيزيون .. ويتأبط ذراع جانيت ويذهب بها إلى عمته و .. ويفيظها !! ..

لقد صعب على أحمد أن تسيخر همته منه. وهي التي يكن لها كل الحب وكل الاحترام، فهي الوحيدة الباقية من أفراد الأسرة .. هي البركة والخير، وفيها كل مقدسات الماضي بعقبه وعجيره ..

فليماذا صيدته هذا الصبد الذي يؤلم النفس!!

ولم يجد أحمد غضباً ضة في أن - يواظب في الشرفه - وأن
يقف أمام جانيته بالساعات ليستجلى طلعتها الجبهة التي تثير
كوامن إحساسه بالجمال..

وذات مساء ألفت عليه التحية، وقد اتسعت - في هذه المرة
بسمتها - وهدت أكثر إشراقاً فرقص قلب أحمد داخل صيده ،
ويتمتع كسبحور :

... - إذن .. فهي تبغى الوصال !

بدا له كل شيء ينبض بالحياة . بالحب ، بالأمل المنشوق
المتوهج ! .. كان من قبل يرمق كل شيء لامعاً هشاً .. أما الآن
فقد أصبح عند اليقين بأن جانيته تحبه . ورتب لنفسه ألف لقاء
ولقاء ! وتوهم في نفسه أنه قد لمسها ألف لمسة . وقبّلها ألف
قبلة !!

ومر في خياله شريط طويل وعريض لحياة سعيدة وهانئة مع
جانيته ولو أنه نقل لبعثته أقل القليل من السعادة التي يحسها
لصوخت في وجهه : إمشي من هنا ولد . إنتر واحد مشيود
بنوهم !

وكان أحمد يضحك من عمته التي لم تنس أبدا أصلها

التركى !! وأرسل أحمد بصره إلى جانيت فابتسمت. وشعر
بقلبه يركض داخل صدره. كان الأمر واضحاً جلياً، حقاً
وصدقاً.. وهل هناك من يستطيع أن ينكر «كل هذا الحب»..؟!
إنها تحبه بلا أدنى ريب !

* * *

مضي أسبوع ولم يلمح أحمد جانيت. لم ير لها أثراً أو ظلاً..
ومضت الاف الخواطر تتوالت في رأسه.. خواطر كلها
سوداء.. كالحة. جفت منابع الأمل في نفسه. وهتف : أين ذهب
ملاكه الحارس ؟!

أبت قدماء أن تبارح الشرفة، إن لم تظهر فسيذهب إليها..
سيسأل عنها وليكن ما يكون. فإنه لن يمنح قلبه لفتاة سواها..
أبدأً أبداً. ودارت بنفسه أفكار شتى. أفكار مشرقة.. تتوهج
بالحب، مرت برأسه ناعمة ورقيقة كورق الورد.. وأخرى مقبضة
سوداء لها وقع في نفسه كأشواك مدببة تنغرس في لحمه !

وأوشكت الشمس أن تغطس في الأفق اللانوردي، وأوشك
الظلام أن يخيم على الدنيا بأسرها.. وفي هذا الوقت سمع وقع
أقدام جانيت في الشرفة، فاستخفه الطرب وتوهجت أحلام الحب
في قلبه، وكاد يصرخ : يا شيخة حرام عليكى.. ليه كده؟!

لقد ظهرت جانيت ! أجل .. ظهرت فى الشرفة كعروس
مجلوة!! إلتقت نحوه وحدجته بنظرة دارت لها رأسه .. فانقرجت
شفتاه عن بسمه راضية، وهز رأسه تحية لصاحبة أجمل وجه
.. وهزت هى رأسها رداً للتحية .. ثم تشاغلته عنه بالنظر إلى
.. الشارع .. وبدت كأنها تفكر فى شئ هام. وهتف أحمد :

- ماذا يا ترى يدور فى رأس جانيت!؟

هبت نسمة هواء فتهدل شعر جانيت فوق جبينها الناصع ..
غيمت السماء واكفهر الجو، وهم أحمد بالانصراف لأن جانيت
لم توله الاهتمام المناسب، ولكنه شعر بقدميه تجمدان بالأرض،
فقد شاهد عددا من الشبان - نفس الشبان - يقتربون من منزل
جانيت وهم يحتضنون حقائب منتفخة، وفتاته الأجنبية تهز
رأسها وأناملها البضة تغوص فى شعرها وتبرز فى حركات
مرنة لتسويته.. وشعر أحمد بالاكتناب وصاحبة أجمل وجه تغادر
الشرفة ! قال مواسيا نفسه : إن كانت الفرصة قد ضاعت اليوم
فمن المؤكد أنها لن تضيع فى الغد!!

واستدار إلى الداخل وجيوش الأسى تزحف على قلبه.. لماذا
ينتابه هذا الشعور فى كل مرة يراها تغادر الشرفة!؟ أهو
حب!؟ هذا حق .. فهو يحبها !! ومازال قلبه يتوهج بحبها !

وتمدد فوق السرير ، وطاقفت برأسه خيالات كل وأوهام شتى ،
قد يكون مدلهأ بحبها وهى عنه لا هية . كل ذلك جائز طبعاً ، فهو
لم يفتحها فى شئ، ولم يأخذ عليها عهداً بالحب أو حتى بحسن
الجوار !!

وعلى - حد علمه - فإنه لم يصرف حتى الآن أن فتاة أجنبية
وقعت فى شرك فتى عربى ، أو حتى رحبت بالزواج من عربى ..
اللهم إلا كان ذلك لأسباب جوهرية ، لا تغيب - طبعاً - عن
فراسته كأن يكون ذلك العربى على درجة كبيرة من الثراء، أو
عالمأ فذاً .. أو تاجراً ناجحاً .. هكذا دائماً الفتاة الأجنبية.. إنها
تبحث عن مصلحتها، وتكيف حياتها حسب المنافع التى تعود
عليها.. سواء كانت هذه المنافع مادية أو معنوية .. أما هو ..

ومصمص أحمد شفتيه فى أسى، فماذا عنده من «بضاعة»
تغرى فتاة فى جمال جانيت ؟!! لا شئ!! ويؤسفه أن يقرر هذه
الحقيقة فيما بينه وبين نفسه بكل صراحة. إذن فإن عمته
المخضومة التى تنحدر من أصل - جركسى - كانت على حق
عندما خذرتة من الانطلاق فى حب واحدة مثل جانيت، فإن عمته
خصبة التجارب و - أروية - كما يقول الناس !

ومضى جانب من الليل وهذه الأفكار تدور فى رأس أحمد،

ويتسع فى نفسه المعنى والمرمى إلى آفاق بعيدة ، فهو مهندس ناشئ.. مجرد مهندس عادى فى مكتب محدود النشاط.. أما هى ، فهى أوربية ، وهى متحررة تبعا لنشأتها المتحررة.

وجاءت الضربة القاصمة التى أطفأت جذوة الحب التى اشتعلت فى صدر أحمد ، فقد شاهد جانبى وهى ترتدى بين أحضان شاب من الذين يترددون عليها .. ثم تركته وقبلت آخر .. هى التى قبلت !

ولأول مرة شعر أحمد بأنه محموم. وأخذ جسمه يرتعد وأسنانه تصطك، وراح يردد كمخبول: أهذا معقول؟! وبدأت الصور الشهوانية تترى أمامه. وعلنا .. فى الشرفة.. الحرية سقطت أمامه فى مستنقع...!!

* * *

فى نفس المساء شاهد أحمد - كبسة - من رجال الشرطة على شقة جانبى، وعلم - كغيره - أن جانبى، فتاته الملائكية النظرة لم تكن غير واحدة من عصابة خطيرة فى تزييف وتهريب النقد.. وقد وقعت فى الكمين المحكم الذى أعده رجال الشرطة! وشاهد أحمد - فتاته - وهى تساق إلى النيابة مع بقية أفراد العصابة .. و.. وصفرة المستقبل المظلم تكسو خديها .. والتقت

نظرت به.. فhez رأسه فى أسف.. وتمتم :

- الحمد لله. الحمد لله ، لأنه لم يقع مع جانيت!!

واستدار إلى الداخل ونظر فى مرآة الحائط.. لم يلمح وجهه،

وإنما لمح وجه عمته.. وهى تنتظر له ساخرة !!! وتمتم :

- أجل ، أيتها الحيزيون ، لقد كنت أنكى منى ، بكثير..

صفية وعرفات

صفية جمال.. فتاة يانعة الصبا فى التاسعة عشر من عمرها.. طويلة القامة ، عريضة الكتفين. سمراء اللون ، صغيرة الفم واسعة العينين .. تتدلى خصل شعرها على ظهرها إلى مابون الأرداف.. ويبدو من ملامح الوجه أنها عنيفة المشاعر قوية الإرادة.

لم يكن والدها طيبا ولا مستقيما فشعرت بالنفور منه . كان يرتاد الحانات ويلعب الميسر ويبدد مصروف البيت على مزاجه الخاص. حتى شقيقها - عزت - كانت تشعر نحوه بالكراهية لأنه كان صورة طبق الأمل من إبيه ! بل إنه زاد على ذلك

فاحترق السرقة والسطو على المنازل والحقول.. وأخيرا عرف

كيف يغازل بنات الناس!!

واعترفت صفية لكل الناس بأنها تحب أمها فقط.. لأنها رقيقة

العواطف وتميل إلى فعل الخير. ولم تشب حياتها شائبة بل إنها

كانت تبدو كقديسة!!

كانت الأم تستوقف الزوج وتطلب منه بعض الضروريات التي

يحتاجها البيت.. فكان يوليها ظهره ويهز كتفيه ثم ينصرف دون

أن يرد!!

وكانت أخباره تأتي إلى زوجته من الجيران والمعارف

والأصدقاء بأنهم شاهدوا زوجها يلعب الميسر، أو يتجرع البوطة

الخمرة وبعد ذلك يمشى وهو يترنج في الطريق، وكان الابن

على شاكلة أبيه.. فكانت الزوجة المسكينة تخلع المنديل - أبو

أوية - من فوق رأسها وترفع يديها إلى السماء وتقول: منك لله

يا جمال يا ابن تفيدة ! ولا تجد غير الدموع لتخفف بها النيران

التي كانت تندلع في صدرها..

كانت صافية تسمع نفس الكلام عن أبيها وشقيقها فيزداد

نفورها منهما معا، ويتضاعف حبها للام.. كانت تتألم عندهما

تسمع أن والدها يحتسى الخمر في الشارع. كانت تشعر

بالغضب يكاد يقتلها .. والقهر يكاد يفري قلبها .

لهذا كله، سرى بين صفية وبين الأم إتفاق غير مكتوب بأن تكون صفية هى ربة البيت .. والساهرة عليه .. وأن تترك والدها وشقيقها لحياة المجون ومستنقع الشرور الذى تردى فيه .. ولأن الهداية ليست إلا من الله وحده

* * *

كانت صفية تخرج من المنزل فى وقت مبكر وهى تمسك بمقود الجاموسة وتمضى فى طريقها إلى الحقل وهناك تمضى فى تنقيته من الحشائش الضارة، أو تعزقه، أو تقوم برى الأرض بالشادوف، ثم تعود آخر النهار وهى راضية قانعة بما أدته من واجب ..

لم يكن هناك مفر من أن تفعل كل ذلك بحفردها .. ويعد أن تفرغ من العمل تجلس إلى جوار ساقية قديمة وتتناول طعامها الذى يتكون من دقيق الذرة وقطعة صغيرة من الجبن ويصلى واحدة .. ثم تشرب من القناية وتحمد الله ..

ولم يكن يضايقها أى شئ فى الحياة .. عدا .. عرفات ! وهو فتى ماجن ولا هم له إلا مغازلة البنات .. والتسكع فى الشوارع والحارات ..

و ذات صباح جلست صفية على أرض القنطرة.. و راحت
ترمق الحقل الذي روته بدموعها .. وصانته بخفقات قلبها ..
ولمحت عرفات.. كان يقترب منها .. قطبت حاجبيها فى تقزز ..
استدارت بجسمها كله بعيدا حتى يمر .. ولكنه وقف وقال
ساخراً :- باصص بعيد ليه يا جميل؟!

تنهدت صفية فى كمد . وبصقت فوق الأرض، ثم استدارت
إليه وقالت فى شبه وعيد:

- اتمشى يا واد ، لايمها وغور من وشى..

لكن هذا الجفاء لم يكن كافيا لردع عرفات، فقد تقدم نحوها
خطوة، وتمتم فى وله وقحة معا :

- صحيح .. التقل صنعة ؟

إنحنت صفية بسرعة فوق سياج القنطرة وقد نفذ صبرها ..
ولأنت بالصمت .. لكن عرفات أمسك ضفيرة صفية وشدها إليه
بقوة ، فانتابها الذعر من هذه الجرأة ولطمته وهى تهدر :

- أوصلت بك القحة إلى هذا الحد.. يا كلب ، ستدفع ثمن
هذه السفالة .. خد.. خد..

ويحركات لا إرادية وجدت نفسها تعضه وتركله حتى أدمت
خده وسالت الدماء من عنقه وكتفه ويده، وكاد عرفات يهرب من

وحشية صفية.. لولا أنه شاهد عزت - شقيق صفية يقف على
بعد خطوتين وقد ارتسمت فوق وجهه بسمه عريضة.. فقد شاهد
كل شيء على الطبيعة لكن عينيه كانتا تقدحان شرراً.. وقال
بصوت أجش :

- إيه ده يا عرفات ؟! بقى ضاقت عليك الدنيا وملقتش غير
أختي صفية!!

وتبادل الاثنان عبارات التهديد. وترك عزت عرفات يمضى
لشأنه ، ثم رمق أخته وقال فى دمدمة مخيفة :

- عمر عزت ما بقى راجل إلا النهاردة يا صفية. وحتعرفى
الحقيقة دى قريب خالص يا صفية !

* * *

عرف الأب أن رجال الشرطة قد ألقوا القبض على ابنه بتهمة
قتل عرفات الذى عثروا عليه مقتولاً فى أحد الحقول .. ففاض
الدم من وجهه وارتعشت زاوية فكه ونظر إلى زجاجة الخمر
وألقى بها فوق الأرض فتهشمتم تماماً.. ومشى فى الشوارع
والدموع تغرق وجهه كله.. وأقسم أنه لن يعود إلى حياة
الضياع..

كانت الدلائل كلها تشير إلى أن عزت هو القاتل وتؤكد هذا

الظن من شهادة الشهود.. ولجأ عزت إلى الصمت التام، لم يقل
إنه قاتل أو إنه برئ.. كانت تعروه حالة من الاكتئاب الشديد..
حتى زارته أخته ولامته على قتل عرفات .. فانهار.. وقال فى
حزن عميق :

- ليتنى كنت القاتل، إن ذلك شرف لى ما بعده شرف!!
إن عزت وغد وقد انتويت قتله بالفعل.. ولكن .. يظهر أن آخر
قد سبقنى إلى هذا الشرف !!

* *

انتهى التحقيق مع عزت وثبت أنه برئ، وخرج من الحبس
الاحتياطى ومشى فى الشارع وذهنه منصرف إلى شئ واحد
فقط - هو التوبة من كل الموبقات التى ارتكبها عن جهالة كما
تاب والده.. وهتف : حياة الشرف جميلة !

ولم يذهب عزت إلى البيت.. وإنما مشى فى طريق إلى
الحقل.. إلى أخته.. المكافحة النبيلة .. والتى حملت فوق كتفها
كل أعباء البيت عن رضى وقناعة نفس.

وهناك لمحها.. كانت تشمر كمياها.. وترتبط ملابسها من
الوسط بحبل من الليف.. واستعدت لأن تروى الحقل
بالشادوف.. فتناوله منها وبدأ فى رى الحقل وفى عينيه كل

الإصرار على التوبة.. والاستقامة..

ورمقته صفية.. وهى تحس أن شقيقها قد ولد من جديد..

ثمن الدواء

الجو خائق. خائق. لا توجد نسمة هواء تهب. الحجرة ضيقة، مظلمة.. تقع فى نهاية حارة أكثر منها إظلاماً وضيقاً.. ليس فيها غير سرير علاه الصدا، وكنبة قديمة مهشمة الزوايا، فوقها ملاء مزركشة بالبقع والثقوب .. بدت بالقرب من الباب كشبه منحرف !

وغطت السيدة توحيدة - رأسها بشملة بيضا... وجلست فوق مقعد خشبى تأكلت حوافيه فغاصت قوائمه الأربعة فى تراب الحجرة وراحت تنتظر إلى الفراغ بعينين دامعتين.. وقد أسندت رأسها المتعب فوق راحة يدها اليسرى.. وتعلق بصرها بابنها الراقد فوق السرير ولم يطرف لها جفن!

وغابت الشمس وهى فى جلستها.. فانتشرت العتمة فى أرجاء المكان ولم يبق بصيص ولو ضئيل من النور. ونظرت - الست توحيدة - إلى المصباح الصغير المعلق فى الحائط ولم تستطع الوقوف على قدميها المرتجفتين لتضيئه. لم تقدر على التحرك من بعد صلاة العصر حتى وقت الغروب..

أغمضت عينيها وهى تسمع أذان المغرب. استرخت فوق
المقعد. أرسلت إلى فراغ الحجرة نظرة فيها توسل وضراعة،
تمتت من بين شفتين مرتعشتين :

- يارب ! إشفه من أجلى. إشف محمود يارب من أجل أمه
المسكينة! ومرق طائر أمام النافذة.. وصفق بجناحيه وارتفع إلى
السماء وهو ينق مولولاً كأنما قدضل الطريق إلى عشه !
أرتجفت توحيدة وهى تلمح الطائر الأسود وسرت فى بدنها رعدة
كرعدة الموت.

- أمى ، أمى ، أين أنت يا أمى !؟

كلمات قليلة . محمومة .. قالها «محمود» الراقد فوق السرير
كهيكل من تلك الهياكل التى يتعلم فيها طلبة الطب. استدارت
الأم إليه. بسطت ذراعيها نحوه بحركة لاشعورية كأنما تهتم
بحمايته من عدو مجهول يحاول أن يفترسه.. لكنها لم تقدر على
الإتيان بأية حركة. سقط رأسها فوق صدرها يائسة. أجهشت
بالبكاء..

وراح محمود فى نوبة من السعال الحاد. وبدأ يئن ، ويبصق
دماً أسود.. فوثبت الأم من فوق المقعد كمن لدغتها أفعى..
اقتربت من فراشه وعيناها تفيضان بالدمع :

- يا حبيبي.. بماذا تشعر ؟..!

اتسعت عينا محمود. هز رأسه فوق الوسادة يمنه ويسره،
وتمتم وهو ينهج كغريق:

- أمي ، أمي ، النار تأكل صدرى ..!

قال ذلك وعض شفتيه الذابلتين كأنما يحاول أن يكتم صرخة
أوشكت أن تنطلق من حلقه. أدارت الأم رأسها بعيدا، مسحت
الدموع.. غاصت بأفكارها إلى بعيد..

لقد مات زوجها فى مطلع الأربعينيات. وتركها وحيدة تصارع
الفقر والحزن والهم. صرفت مكافأة نهاية الخدمة. لم تزد على
السبعين جنيها من السكة الحديد.. لكن المكافأة ذابت كسراب
خلال بضعة شهور ! .

أجل، مات الزوج ولم يبق لها فى الحياة إلا هو : محمود
الغالى ! ولكن، هاهو الداء اللعين يفترسه قطرة بعد قطرة،
وليس بوسعها أن تفعل له أى شئ. فقد قيل لها فى مستشفى
الصدر إن الداء قد استحکم .. و.. وموعد العلاج قد فات !

هبت نسمة هواء، اهتز لها ضوء المصباح الخايب الذى
أشعلته الأم منذ لحظة، أعطت الأم إبنها جرعة نواء.. مسكن..
هدأت حدة السعال وزايله الألم الذى كان يجعل صفحة وجهه

تتقبص وتتبسط كأنه واقع تحت تأثير عذاب مروع !

مضت لحظة عاد السعال بعدها أشد مما كان. أحست الأم
كانها تختنق. ارتفعت يدها اليسرى إلى عنقها ومشت أناملها
البضة فوق قلادة من الخرز الأخضر.. قالت من أعماقها : أه يا
حبيبي لو أن هذه القلادة كانت من ذهب !

ولمعت عيناها فجأة، وسرت في جسدها رعشة غريبة..
ومثيرة. امتد تفكيرها إلي «لحظات شريرة» .. لحظات.. أجل
هي لحظات فقط.. لكنها قد تكون السبب في شفاء محمود..
ابنها الوحيد الغالي..

التفت ذراعها حول صدرها دون وعى، كأنما تحاول أن تحمي
هذا الصدر «الناهد» من مقلب أسود .. حاد.. كان ينهشه (!)
اكفهر وجهها الصبوح. أرسلت بصرها في الفضاء عبر
النافذة. رأت النجوم تخبو وتلمع في صفحة السماء كأنما هناك
قوة جبارة تحاول أن تطفئها..

صاح طائر - اليوم - في مكان ما .. فتبعته صرخات متردة
من طيور أخرى.. عادت الأم تفكر مرة أخرى في محمود
والأسى يعتصرها كما تعصر الماكينة ثمرة غضة. لقد واجهت
الحياة بمفردها. رفضت أن تتزوج رغم العروض المغرية. لم

تستمع لقول الناس. شقت طريقها فى الحياة كأشرف أرملة.
كان الهدف هو إسعاد ابنها. أثرت أن تخدم فى البيوت ولكنها
اكتشفت أن بعض البيوت تضم بين جدرانها ذئابا لها شكل
وشبه الإنسان. فهربت ناجية بعفتها خشية أن يدنسها ذئب..
هربت دون أن تدنس قداسة الأم !!

وكبر محمود .. أصبح عمره الآن يزيد قليلا عن ١٠ سنوات..
كانت تتعجل الأيام لتراه رجلاً، رجلاً قويا يحميها من عوادي
الزمن .. ولكنه أصيب بالسعال منذ حوالى عام. ظنت أول الأمر
أنها نزلة برد .. فراحت تسقيه منقوع اللبان الذكر .. وتغلى له
شواشى الذرة، وورق الجواقة والصفصاف .. فكان السعال يهدأ
لحظة ليعود بعدها أشد .. إلى أن .. شاهدته يبصق دماً أحمر
وبدأت دماء الحياة تفيض من وجنتيه .. وأصاب ابنها الغالى
النحول .. حتى لقد بدا كعود يابس من الحطب !

ومنذ الصباح بدأت أنفاسه تتلاحق .. وصدره يعلو ويهبط..
فبقيت تنتظر إليه بقلب واجف ولب ذاهب .. أرادت أن تخرج. أن
تصرخ. أن تستغيث. أن تفعل أى شئ .. ولكنها لم تتحرك من
مكانها .. أصيبت بالجمود والخرس معا !

أفاقت من كل الخواطر السوداء التى طافت برأسها على

أنين محمود . انفلتت من حلقها صيحة ألم. اقتربت منه وهي
فاقدة لكل وعيها. رأت «الريم» يطفف فوق شفثيه فمسحته
بأنامل مرتعشة وندت عنها أنه مكتومة أشبه بآنة حيوان ذبيح.
جحظت عيناها وهي ترى قدميه ترطمان ببعض. وصدره يعلو
ويهبط كقربة تخضها فلاحه هزيلة فى كوخ صغير !

مضت برهة وهي أشبه بتمثال من الرخام لا حراك به.
ارتعشت يد محمود ، أمسك بجلبابه من عند الصدر، أخذ يئن
بصوت متقطع أجش :

- أمى أمى.. إنى أختنق.. ألم تسمعينى يا أمى ؟!

إرتدت توحيدة إلى الخلف دفعة واحدة. قبضت أناملها على
زجاجة الدواء . رفعتها إلى مستوى عينها.. راحت تحديق فيها،
هزت رأسها فى أسف . فالزجاجة فارغة تماما.. والدواء وحده
هو الذى يوقف هذا الأنين.. هذا العذاب.. ولكن.. أين ثمن
الدواء!

سقطت زجاجة الدواء من يد الست توحيدة فوق المنضدة.
رفعتها وفوق شفثيتها بسمه صفراء، أرسلت من حلقها زفرة حرة
تمتعت لنفسها باكتئاب :

- ولدى ، ولدى. ليتنى لم أكن على وجه الأرض قبل أن أراك

وأنت بهذه الحال. ليتنى - يا ولدى - أستطيع أن أوقف ألامك
ولو بحياتى..

إنها ترى بعينى رأسها ولدها الوحيد.. الحبيب.. يموت وليس
فى جيبها ولا فى بيتها كله سوى ثلاثة قروش .. إن صاحبة
المنزل طيبة القلب.. تعرف كل شئ وتعذرها.. إن نفسها تنطوى
على نزعة خير مثل كل إنسان طيب.. ولذلك لم تطلب منها
الإيجار قط.. لأنها تعرف أن حياة ابنها فى خطر.. لقد أمهلتها
- عن طيب خاطر - إلى أجل غير مسمى !

ولكنها الآن تواجه حقيقة مرة . إنها مسألة حياة أو موت ..
ولكن.. موت من ؟! ابنها، وحيدها الغالى، الابن الذى خرجت به
من الدنيا، والذى رفضت كل عروض الزواج من أجله..

أطرقت برأسها تفكر قليلاً . ماتت أصابعها على زجاجة
الدواء فحطمتها وهى لا تدرى. كانت تنصت بكل نبضات القلب
إلى أنفاس محمود .. كانت تصخب فى صدره.. وأنيته لا يكاد
ينقطع ، وهممت لنفسها بصوت محموم:

- أه يا ولدى ! يا حبيبى ! يا عقلى ! يا روحى يا محمود !
ماذا أستطيع أن أفعل لك وأنا عاجزة كما ترى ؟! فأنا من
شجرة مقطوعة يا محمود .. سامحنى يا ولدى !!

وهبطت الدموع من عينيها مدراراً وهى تفكر فى حياتها الشقية.. واحتياجها الملح ، والظروف التى جعلتها مغلوقة على أمرها.. لقد ذهبت إلى كل معارف الزوج، واقتضت منهم مبالغ لم تردها. لا أمل إذن فى الاقتراض من أحد. إن التفكير فى ذلك مضيعة للوقت.. وأى مضيعة؟!

وانبلج لها فى ذلك الموقف الدقيق شعاع من أمل.. ألم تقل الناس من قديم الأزل أن الحاجة هى أم الاختراع !!! وصرخت : لقد وجدتها.. تماماً كما قالها أرشميدس من قبل وهو يكتشف قانون الطفو !

وراحت بسمة حزينة ترسم على شفثيها من وقت لآخر فتكسب وجهها الشاحب عظمة وجلالاً.. عظمة الأم.. وجلال الأم، الأم التى تريد أن تحقق أنبل الغايات بأحط الوسائل ! من غير أن يتسرب إلى ذهنها إلا أنها ضحية ضعيفة من ضحايا القضاء والقدر !!

أجل .. ! .. لم يبق أمامها من وسيلة فعالة غير وسيلة الطريق الشائك ولطالما فكرت فى هذا الطريق من أجل انقاذ ابنها، وهمت أن تسلك هذا الطريق بالفعل، ولكنها ترددت متعلقة بأن رحمة الله قريبة منها ومن ابنها.

- واحسرتها - هتفت بذلك لنفسها .. فقد أصبح هذا الطريق هو الملاذ الأخير .. لأن أحدا لم يعد يقرضها .. ولأن رحمة الله لم تتركها (!)

وركضت أفكارها نحو هذا الطريق وحده. وتواثبت خطواتها حول أشواكه الدامية التي تمزق النفس الأبية الحرة. إنها ماتزال فى مقتبل العمر .. على درجة عالية من ملاحظة الوجه والجسد .. فى ملامحها وسامة لا تزال باقية. وفى عينيها إغراء قوى .. إغراء يشد ثيران الرجال ويغالهم ! وأكثرهم ميلاً إلى الشهوة والدناءة ..

وتنهدت توحيدة من قلب مكسوم. لقد سمعت من الشباب - قبل الرجال أن لها بسمه خلابة ونظرة جذابة و.. وتكونا بديعا .. ولكنها لم تلق بالاً لأقوال كل هؤلاء - الأدياء ، لأن صدرها لم يكن يتسع إلا لحب واحد فقط هو حبها لوحيدها، محمود ! ولأن عقلها لم يكن يفكر إلا فى إسعاده !

قصرت حياتها على حب محمود وحده، ونسيت كل مطالب الأنثى، وحرمت نفسها من ثوب .. أو قميص جديد، أو حتى ربطة رأس ! بل إن موت زوجها لم يخلف فراغاً فى حياتها. محمود وحده هو الذى كان يملأ كل فراغ حياتها - صار لها الزوج ..

والأخ .. والولد !

ورغم كل هذا الحرمان فإنها لم تنس قط أن تفرق محمود
بالعب والهدايا .. طائرة .. سيارة .. دمية .. سفينة مزركشة ..
كرة أو حصانا ثميناً .

كانت تقدم له كل ذلك لأنه - هو وحده - كل حياتها
ووجودها .. كان محمود .. ومحمود وحده هو رجلها ومثلها
الأعلى، وكان - وهو صغير - يتقبل هدايا أمه وفوق شفتيه
بسمه حلوة، ويرفع إليها وجهها تملؤه الطهارة والبراءة - فنقول
في نشوة ما بعدها نشوة !

- العب ، العب يا حبيبي .. فكلها لك، لك أنت وحدك ..

ولكن هاهو محمود يموت ! يموت ! .. صرخت بذلك لنفسها
من داخل الأعماق، واستولى عليها يأس قاتل .. شعرت كأن يدا
قوية تمتد إلى قلبها الدامي وتعصره عصراً .. تعصره بلا
شفقة ...

إنها تستطيع أن تخرج الآن. وأن تحصل على أضعاف
أضعاف ثمن الدواء لولدها من أول وحش آدمي يصادفها فإن
الطرق تعج بالوحوش المفترسة التي لها لون وشبه الإنسان ..
إنها تعرف ذلك تماماً .. فلماذا لا تخرج - ولو لمرة واحدة -

وتتقذ وحيدها .. والله يغفر الذنوب ؟!

الله .. يغفر الذنوب ؟ ما هذا يا توحيدة ؟ تجوع الحرة ولا
تاكل بثدييها .. ألم يصل إليك نبأ هذا القول يا توحيدة من
الشيخ رجب ؟!

وردت لنفسها كمخبولة : أه .. إن الشيخ رجب يجلس فوق
الكنبة أمام باب الدار كل يوم ويقدم الفتوى لكل من يطلبها من
أهل المدينة.. إذا استعصت عليهم الفتوى أو إذا ضلوا
المعرفة!!

لقد سمعت ذلك عندما شرعت - أم الخير - أن تترك طفلها
لترضع ابن «باشا» .. يومها قال لها الشيخ رجب : إن صغيرك
أحق بلبن ثديك من ابن الباشا، وذلك لأن الباشا يستطيع أن
يغذى ابنه بوسائل أخرى، أما ابنك فليس له إلا ثديك ! -
وتمتعت يومها - وشعور بالخزي قد انتابها، نعم سمعت كل
هذا .. ولكن .. ابني .. ابني الغالي محمود .. إن الشيخ رجب
يعرف كل شيء.. فلماذا لم يتصدق عليها - ولو لمرة - بثمر
الدواء ؟! ألم أذهب إليه بالأمس فقط، وخرجت وأنا شبه مطرودة
؟! تبأ له !!

إن الشيخ رجب ليس شيخاً .. إنه يدعى أنه قد أوتى حكمة

الأولين والآخرين .. إنه يفتى عن الإبرة فى الوقت الذى يعرف فيه أن لديه قابلية لأن يلتهم جملاً (!)

ونسيت توحيدة الشيخ رجب ونفاقه .. ونسيت أم الخير وصغيرها .. وعادت تفكر فى الوسيلة التى تستطيع بها أن تنقذ ولدها من الموت .. فلم تجد غير الوسيلة الوحيدة التى تحتقرها .. وتجسدت لها فعلتها أمام عينيها .. فى جميع أطوارها ومراحلها .. فارتجفت أوصالها رعباً وفزعاً .. وشعرت بدوار هائل .. وتراقص كل شئ فى الغرفة أمام بصرها ، وخيل إليها أن جدران الغرفة تكاد تنطبق عليها . وأنها تختنق . وتموت .. وتموت ، تماماً كالحشرة التى تدوسها قدم عابر السبيل .

ومرة أخرى ، لاحت لها صورة الشيخ رجب ، وهتفت :

- لماذا لم يقدم لى مشورة تريخ بالى ؟! تطفئ من النيران التى أحسها تستعر فى صدرى ؟! ولكنها عادت تهتف لنفسها فى يأس :- وهل الشيخ رجب مكلف بأن يرعى المرضى وأن يطعم الجوعى ؟! وأن يمد المعوزين بالمال ؟! لا ، لا ، لا ، لا ، لا توحيدة ، لا تظلمى الرجل ، ولا تخطى بين بؤسك وألمك بأحوال الآخرين . فمن يدري .. ربما كان الشيخ رجب أيضاً معزوراً ، ولو كان بوسعه أن يفعل شيئاً لوفر عليك مذلة السؤال .

وأيقظها من خواطرها سعال محمود. كان يسعل هذه المرة بقوة. فارتجفت الست توحيدة كما ترتجف الزهرة تحت ضربات الريح ! ورأته يدير فى الحجرة عينين تائهتين.. فأظلمت الدنيا أمامها.. وامتدت يدها إلى ثوبها الأزرق وارتدته بلا تفكير، إذا لم يكن هناك أى مجال للتردد وابنها الغالى يتعذب!!

ورمقها محمود بعينين خبا بريقهما، وهز رأسه بصعوبة ، وارتجفت شفتاه التى أصبحت شبيهة بخطين من الطلاء الأزرق. وضغطت يده الواهنة فوق يدها التى مدتها إليه كأنه يريد أن يستبقها إلى جواره.. ولكن الأم لم تفهم معنى لهزة رأسه ولا معنى لاهمهمته الخافتة.. لم تفهم إلا أنه يتعذب.. وأنه فى أمس الحاجة إلى الدواء..

ونكست رأسها خجلا. وشعرت أن رأسها قد أصبح أكثر ثقلا من جبل فوق كتفها.. وكادت تضعف أمام نظرات محمود المتوسلة.. الخابية.. كادت أن تخلع ثوبها الذى كان له لون شفتى وحيدها العالى..

وشعرت نحو نفسها باشمئزاز غريب. شعرت أنها تحتقر نفسها لأقصى حد.. ولكنها تمالكت نفسها، وقالت وفى عينيها نظرة ألم وعطف :

- لن أتأخر عليك يا حبيبى. سأبحث عن صديق ! لأقترض منه ثمن ...

ولم تستطع أن تكمل كلامها. فأخفت وجهها بين راحتها، واعترتها هزة قوية.. فقد توهمت أن محمود يرمقها باحتقار.. توهمت أنه فهم كل شئ.. وأنه .. وأنه يلعنها، يلعنها كأى باعته نفسها للشيطان من أجل ثمن بواء قد لا يكون فيه الشفاء.. توهمت أنه يلعنها بكل ماله من نبض واهن.. يلعنها.. يلعنها إلى الأبد!

صرخت : حنانيك يا ولدى، لا تنظر إلى هذه النظرة ، إنى أتألم، رفقا بألمك يا محمود ، لم يبق فى طوق أمك إلا أن.. ورددت فى همس : أجل .. إلا ..

واستجمعت توحيد كل قواها المتخاذلة.. سيطرت على أعصابها المضطربة حتى لا تضعف أمام نظرات ابنها التى شعرت أنها تكاد تحرقها. انطلقت كسهم مارق. هبطت الدرج بلا وعى .. وخلال ثوان معدودة كانت فى الشارع ، وليس فى ذهنها غير صورة زجاجة الدواء لابنها..

ابنها ؟ وحيدها ! حبيبها الغالى .. أتركه يتعذب وفيها عرق ينبض ؟ لا.. وألف لا.. إنها تريد فقط أن تراه معافياً وتموت !!

وراحت تزحف فى الشوارع بلا هدف، كثعبان شريد يزحف فوق أرض خالية من الشقوق والناس تطارده بالعصى من كل اتجاه. ربما كانت فعلتها تؤذى الضمير الحى .. لكن ماحيلتها!!!

وعندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير شعرت براحة غريبة.. ولاح لها خيال رجل يتسكع تحت عمود النور، ما أن شاهدها حتى زحف ناحيتها كالأفعوان . ولم تكن بحاجة لأن تعرف أنه من كلاب المتعة الحرام. كلب . مسعور. يبحث عن جثة لينهش عفتها.. ويدفع لها الثمن، وما أغلى التضحية وما أرخص الثمن !

وخلال دقائق كان قد تم الاتفاق بين الوحش والفريسة.. بعد غمزة ولمسة ! عجوز ، متهاك. كلب .. أجرب ، لو كانت خالية من هم محمود لبقرت بطنه لمجرد نظرة فاجرة منه.. ولكن، ماحيلتها وكل همها هو إنقاذ محمود من موت محقق ؟!

مشت إلى جوار الكلب العجوز بفؤاد منسحق تماماً.. ودلفت معه إلى منزل وحيد وهى تشعر بالأرض تميد تحت قدميها كأنها تمشى فوق جبل من وحل ! وقضت معه دقائق رهيبة . قاسية . سحقت خلالها كل إحساس عندها بقداسة الأمومة .. وبالرغم

من ذلك فإن ثمن الدواء لم يكن كافيا .. فاضطرت أن تبحث عن
كلب آخر .. ووجدته بسهولة أيضا .. فالكلاب التي من هذه
الفصيلة أكثر من الهم على القلب !

وعادت شبه منسحقة إلى البيت ومعها الدواء .. كل الدواء ..
كانت تقبض عليه وكأنها تقبض على كل كنوز الأرض .. وتبقت
معه بضعة قروش لم تشعر بها فسقطت منها وهي لا تدري ..
وبكت . بكت طويلا وهي تصعد درج السلم، وصرخت من
أعماق أعماقها : ضاعت قيمتك يا توحيدة كامرأة حرة !!
وهرولت إلى ولدها ملهوفة . ونادته بأعذب ما تنادى به أم ولدها
الحبيب ، الوحيد :

- قم يا حبيبي، لقد أن لك أن تخف !

ولكن محمود لم يرد .. وصرخت صرخة شقت سكون الليل :

- ولدى .. محمود .. حبيبي .. سامحنى ..

ولكن محمود لم يرد . كان قد انتهى . وضاع شرفها في هذه
الليلة المشنومة، لأول .. وآخر مرة !!!

شبح نصف الليل

إمتد نظر «مختار» إلى أمواج النيل التى تترقرق تحت أشعة الشمس الغاربة ثم التفت إلى أصدقائه الأربعة وتنهّد، وقال بصوت حاول أن يخفى الرعدة التى تغشته :

- لا أعتقد أنه سيصدق هذه القصة بسهولة ومع ذلك فليس هناك ما يمنع أن أؤكد أنها وقعت لى أنا .. شخصياً.

وتنهّد . ومسح العرق الذى تقصد من جبينه، ثم استطرّد وكأنه واقع تحت تأثير قوة خفية :

- كان ذلك فى مطلع الأربعينيات.. وكنت وقتها فى الرابعة والعشرين عندما انتدبت للعمل فى أسوان ، ومن الطبيعى أن من يذهب إلى أسوان كان لابد له من زيارة الخزان الذى يبعد عن المدينة بحوالى كيلو متر واحد إلى الجنوب .. كما كان لابد

له من زيارة مابقى من أطلال قصر أنس الوجود، وبعض
الاماكن الأثرية التى مازالت تحتفظ برونقها وبعطرها القديم
بالرغم من مرور عدة ألوف من السنين!!

ومضت لحظة لم ينطق خلالها مختار. وراح يتأمل وجوه
الأصدقاء الأربعة وكأنه ينظر إلى شئ يراه من بعد سحيق، ثم
قال:

- وذات ليلة أحسست بأرق شديد ، ويقلق مبهم.. فخرجت
بعد منتصف الليل من غرفتى بالفندق القريب من النهر، ومشيت
على الشاطئ الساحر أستروح النسمات العطرة، ولا أستطيع أن
أحدد المسافة التى مشيتها بالضبط، فقد كنت أحس بارتياح
شديد وأنا أتابع أمواج النيل الساحرة والقمر يضى عليها لونه
الفضى الجميل.. المهم. لم أشعر إلا وأنا أمشى بجوار أشربة
السكك الحديدية، حيث هناك من الشمال توجد ورش الوابورات
- تلك التى كانت تعمل قبل تصميم قاطرات الديزل - !!
أصابنى دهش عميق وأخذت أحملق فى الوابورات التى كانت
تقف مصطفة كالأشباح فوق قضبانها الحديدية.. وهتفت لنفسى
فى عجب :

- ترى .. ما الذى أتى بى إلى هنا؟!

لم أجد جواباً !! فهزئت رأسى وأردت العودة إلى شاطئ النيل، ولكنى وجدت نفسى أسير فى قرية «الحكروب» وهى قرية صغيرة تقع تحت الجبل الشرقى وتدور حولها حكايات وأساطير بعضها مزعج ومرعب ، ولكن بعضها الآخر ضاحك ومرح، بل ويجلب المسرة إلى النفس !! ورحت أحلق فى الجبال الشاهقة وقد تبلدت كل أحاسيسى ، وهتفت :

- ترى ما الذى نقلنى إلى شرق المدينة بعد أن كنت فى غربها؟! لم أجد جواباً على السؤال الذى ألقىته على نفسى ! ولكنى أحسست بتوتر شديد، ويخوف مبهم. وبدأ قلبى يدق بقوة.. وأثناء سيرى كدت أصطدم بشئ غريب .. شئ لم أعرف له كنها.. هل هو إنسان !!؟ هل هو .. مار د !!؟ المهم.. قابلنى شبح.. أى والله .. شبح غريب .. فى طوله .. فى عرضه .. فى وجهه المستطيل الذى ينم عن شنوء مطلق فى ملامح الإنسان (!) قلت لنفسى بخوف : لابد أننى أمام لص.. وغد، من أولئك الذين يخفون وجوههم وراء قناع من أقنعة الشياطين، أو أننى - على أفضل الأحوال - أواجه واحداً من قطاع الطرق.. أولئك الذين يتصدون للناس فى مثل هذه الأمكنة الخالية لسلب أموالهم..

وقفت أرعد. ولابد أن هيئتي كانت مخيفة ! فقد وضع ذلك
من اصطكاك أسناني !

فوجئت بذلك الشبح يشعل لفافة تبغ، فوضحت كل ملامح
الوجه.. ترى ماذا رأيت ؟! هل رأيت وجه مخلوق مخيف ؟! هل
تبينت على الضوء الشاحب السريع لعود الكبريت وجهها
شيطانيا؟!.. لا والله ! وإنما رأيت أجمل رأس.. وشعر.. ويدين.
وقال بصوت رفيع لم أسمع مثله قط :

- أأنت غريب ؟!

قلت وجسدى كله يرتعد :

- نعم .. فأنا . . .

ورأيت وجهه يتجهم ، وملامحه كلها تنقلب إلى هيئة مخيفة..
هيئة أشبه بهيئة الأموات ! فأمسكت عن بقية الكلام، وتنهدت..
ورحت أقرأ المعوذتين والصمدية وآية الكرسي.. ومع ذلك فقد
سمعته يقول وهو غير ملق لأى أهمية لى :

- خسارة ! لو كنت - حيا مثلى - لانطلقت خفيفاً وحرأ فى

هذا الكون البديع !!

وهنا فقط أحسست بجسدى كله يرتجف كورقة فى مهب
الريح.. ثم .. ثم لم أعد أشعر بشئ !!

وأخذ خالد يتصفح ويهوه الأصدقاء الأربعة واحداً بعد الآخر،
ومضى فى روايته العجيبة فقال :

- استيقظت من غشيتى فوجدت نفسى غارقا فى بحر من
العرق البارد.. وكنت أشعر بهزال شديد ، ويضعف غير عادى
فى النبض.. وكانت السحب وقتها قد انجلت تماما عن وجه
القمر.. ونبتت فى رأسى فكرة : لقد سمعت كثيرا عن المردة
والشياطين، وأشباح القتلى.. أفيكون الشبح الذى قابلنى..
واحداً من هؤلاء ؟!

وعند هذا الحد من التفكير انتابتنى قشعريرة أكثر هولاً من
قشعريرة الموت، وهتفت!

- أهذا .. ممكن ؟!

- أرايت ماردا؟!

- أم شيطاننا ؟!

- أم شبحاً مقتولاً ؟!

كل هذا جائز، فقد كانت كل الدلائل تؤكد أن ما رأيته واحداً
من هؤلاء !!!

لقد كانت لحظة قاسية لم أصمد لها . هذا حق.. ولكن لو أننى

ذكرت هذه القصة لواحد من معارفى فماذا - يا ترى - يكون وقعها عليه ؟!

وتعال صفاة قاطرة من المحطة ، تنبئ عن استعداد قطار الفجر للقيام إلى الشمال. وكانت الدنيا مازالت مغبشة - بعد احتجاب القمر خلف الجبل.. فهرعت إلى الفندق كي أنال قسطاً من الراحة، وأثناء صعودى لدرج سلم الرصيف مرق من بين قدمى (خنزير) صغير، فانتابتنى غشية كغشية الموت وهتفت :

- ترى ماهو الفارق بين مارد جبار وخنزير وبيع كهذا الذى مرق من بين قدمى توأ؟!.. لا فرق !! ففى الحالتين انتابتنى رعدة وغشية..

ومضى مختار يكمل قصته فقال !

- عدت إلى غرفتى بالفندق وبقيت بها طوال النهار حتى جئتم، ولاحظتم ما أنا فيه من تغير.. وها أنذا، أراكم تتساعلون وتلحون وراء السبب، وأقول لكم - بكل صراحة - إننى أحس بنفسى تكاد تنقبض غماً وكمدأ ، ذلك لأن هذه القصة - إن لم تكن خرافية أو من القصص التى لا يمكن تصديقها بسهولة - فكيف أستطيع أن أضرب صفحاً عنها ؟!

أو كيف أستطيع أن أذكرها دون أن أشعر بحرج؟!

وعندما انتهى خالد من سرد قصته وملاحظاته عليها، أخذ
الأصدقاء الأربعة ينقلون البصر فيما بينهم ولسان حالهم يقول :
وهذا واحد من الذين يروجون الخرافات !!

مخاوف صغيرة

الوقت ! ليلة من ليالى الشتاء الباردة. عدت إلى المنزل فى السابعة مساء. أضأت النور، غسلت وجهى.. ثم ألقيت بنفسى ثقيلًا فوق مقعد وثير قائم بجوار الشرفة. أسندت رأسى إلى ظهر المقعد فى جلسة مسترخية ريثما أسترد بعض قواى.. لم أشعر من قبل بمثل هذا الإرهاق بعد أن قضيت يوما حافلاً بالعمل فى مشروع هندسى جديد فى صحراء الهرم..

هبّت لفحة ريح غاصت لها رؤوس الأشجار وارتعشت أوراقها.. الشارع صامت مظلم.. عدا أناث صدرت عن سلوى.. الطفلة الصغيرة الجميلة التى تقيم مع أمها فى المنزل المجاور . تكررت أناث الطفلة .. ماجت فى قلبى مشاعر متدفقة. قوية

متلاطمة، همست لنفسى :

- لابد أن سلوى وحيدة.. يا للصغيرة !!

مددت رأسى إلى شرفة سلوى لأعرف ما الذى يبكيها .. رأيته
- كانت قد رفعت رأسها إلى فوق حافة الشرفة ، وتلفتت يمنة
ويسرة ثم قالت فى شبه أنين : أمى ، أمى ، أين أنت يا أمى ؟

قالت ذلك بصوت حزين تهتز له خوالج النفس. قلت لنفسى :
- ترى أين تذهب أم هذه الطفلة؟! وكيف يهون عليها أن
تترك طفلتها الصغيرة هكذا وحيدة؟!

ضاق صدرى لبكاء الطفلة الذى لم ينقطع، وخامرنى
إحساس قوى بأن أذهب إليها كى أبدد المخاوف من نفسها،
لكن.. ماذا - يا ترى - تقول الأم لو أنها حضرت ووجدتني فى
بيتها ؟!

إنتابتنى الحيرة، بينما تعالت أنات الطفلة : أمى ، أمى أين
أنت يا أمى .. أنا خائفة يا أمى ! وجائعة يا أمى !.

كان فوق طاقتى أن أحتمل. كان صراخ الطفلة بالجوع
كشحنة كهربية دفعتنى إليها دفعا، بغض النظر عما يترتب على
ذلك من نتائج.. ولتذهب أمها إلى الشيطان!!

هرولت إلى سطح المنزل بخطوات ملهوفة. وطرقت الباب
فتحت الطفلة والفرحة الملهوفة تطل من عينيها السوداوين.. ولما
تبينت أن الطارق لم يكن الأم.. تراجعت إلى الوراء فى زعر.. ثم
وقفت تحملق فى وجهى فى خشية ورهبة.. وأخذ جسمها الناحل
يهتز فى رجفات عصبية ولم تنطق بحرف!

تأملتها فى حنان غريب ، هى هى ، صورة طبق الأصل من
أمها .. حاجبها . أهدابها شفتيها.. أنفها.. شعرها .. يديها ..
هتفت : سبحان الله . الفرع من جنس الأصل ! امتدت يدي
إلى شعرها تمشى فوقه بحنان، ثم خطوت إلى الداخل وأضأت
النور، ولمحت وجهها البرئ وقلت :

- لا تخافى يا سلوى .. فأننا جار طيب .. شريف وعفيف ،
وليس لى من غرض إلا أن أبدد من نفسك المخاوف إلى أن
تحضر أمك..

تراجعت سلوى إلى الوراء .. ثم أشارت إلى مقعد مجاور
للسرير فى اكتئاب واضح ، وقالت فى لفطة حلوة :
- معذرة أيها الجار ! فأننا صغيرة كما ترى، لذلك لم أتمكن
من إضاءة النور.. تفضل .. إجلس..

قدمت لها وجبة الطعام.. فوضعت عروستها فوق حافة

السريـر، وقضمت لقمة، ثم رمقتنى وقالت بخوف :

- عندما تغيب أُمى لا أدرى لماذا أشعر بأن المسكن كله
يعج بالشياطين والأشباح .. وأمنا الغولة !

وتنهدت وهى تجلس فوق حافة السرير إلى جوار عروستها
وعادت تقول :

- إننى أخاف من العقاريت . أراها دائما وهى تهبط من فوق
رعوس الأشجار .. وتقترب منى .. وتحاول أن تفترسنى ! وراحت
تفكر لحظة وهى تمضغ الطعام .. وعادت تقول :

- قل لى أيها الجار .. لماذا تظهر الأشباح رغم إخفاء الوجه
وإغماض العينين !؟

ضحكت وأنا أتصفح ذلك الوجه الصغير البرئ، وقلت :

- لا يا سلوى . لا يوجد شئ اسمه شبح .. وإنما هى
خيالات ليست لها يد تمتد بالأذى لمخلوق !

شاع الاطمئنان فى وجه سلوى لحظة ، ثم جذبتنى من كم
القميص وهى تقول :

- هيا بنا إلى الشرفة. أنظر .. بماذا تفسر هذه الأشباح
التي تشبه الضوء!؟

لثمت يدها الصغيرة، وقلت :

- لا يا سلوى. هذه الخيالات ليست أجساماً، وإنما هي انعكاسات الأضواء التى تنبعث من مصابيح السيارات التى تمرق من آخر الشارع !!

بدا على سلوى أنها اقتنعت بما قلت . وأردت أن أعرف شيئاً عن حياة أمها، ولماذا تغيب كثيراً عن المنزل ، لكننى شعرت بالحرَج، وسرّنى أنها قالت من تلقاء نفسها :

- لا بد أن أمى تأخرت لسبب خارج عن إرادتها.. أنا أعرف أنها لا تطيق البعد عنى منذ أن توفى أبى فجأة فى العام الفائت!

أحسست بكلماتها البريئة تنفذ حتى أعماقى ، وتمتمت فى حسرة.

- ليت كانت لى زوجة كأم هذه الطفلة، وطفلة حلوة كهذه الطفلة.. تبديدان الظلام المخيم على حياتى البائسة!

وأجلت البصر فى الحجرة الرحبة. كانت نظيفة .. منسقة.. وتمتمت لنفسى : لا تستطيع يد أن تفعل هذا إلا يد المرأة.. أنها تستطيع أن ترتب كل شئ بهيئة تبهج النفس ! ورمقت سلوى وقلت باسم :

- يبدو أن أمك تعنى بترتيب مسكنها عناية خاصة .. فإن
غرفتكم هذه أجمل بكثير من غرفتي !

- أمى كما تقول أيها الجار الطيب.. وكل الجيران يشهدون
لها بالبراعة والتفوق فى تنسيق المسكن.. ونظافته!!

رمقت ساعة معصمى فوجدتها تشير إلى منتصف الليل.
وبدأت الأفكار تناوشنى. هل أقضى الليل مع سلوى؟!

ومضى الوقت بطيئاً .. ثقيلاً.. وسلوى تنصت لكل صوت.
وسرعان ما اختفت الطمأنينة التى كانت تشيع فى كلامها..
وعندما دقت الساعة تعلن الواحدة ، رمقتنى وقالت بخوف:

- أمى، لماذا تأخرت . قل لى يا سيدى.. أرجوك ، فليس لى
فى الدنيا إلا هى..

قالت ذلك وانكششت على نفسها، ثم اندست تحت ملاءة وردية
بلون خديها الموردين. ولم يعد باديا من جسمها غير وجه صغير
تطل منه عينان جميلتان ولكن ينبعث منهما شعاع يبدو فيه
الخوف.. وبدأت تبكى ..

أحسست للحظة بالكراهية لأم سلوى .. فقد بدأ الخوف
يفترس قلب الطفلة.. بل خيل إلى أن الرعب قد بدأ يسحق قلبها
الصغير.. البرئ.. مشيت إلى الشرفة وتلفت يمنة ويسرة ولكنى

لم أجد أحدا.. وبدأت الطفلة فى بكاء لا ينقطع.. فرمقتها فى برم
! وشعرت بالعرق يبلل جبينى، وتمتمت فى ضيق :

- يا إلهى .. ما هذا البلاء العظيم !؟

وداهمنى شعور مباغت بأن فاجعة قد وقعت للأم، أجل فاجعة
أعجزتها عن العودة إلى البيت فى الوقت المناسب، وهمست
لنفسى بصوت متحشرج :

- أجل ، أجل .. لا بد أن الأم لم تتأخر إلا بفعل فاجعة حلت
بها !

ودقت الساعة تعلن الثانية صباحاً ، ورحت أتلقت حولى بقلق.
بل اعترانى قلق خفى.. قلق صاعق.. أحسست به يرج قلبى
ويعصره عصراً . رفعت عينى إلى السماء. كانت صفحتها
سوداء.. وأخيرا .. أخيرا جدا.. تناهت إلى أذنى حركة خافتة
صدرت من عند باب الشقة، فاستدرت نحو مصدر الصوت.
كانت هى . أم سلوى. اقتربت من فراش طفلتها، ومالت نحوها
بكل شوق ولهفة الأم، ثم أيقظتها واحتوتها بين ذراعيها، وراحت
تلثم شعرها، بينما ندت عن سلوى صرخة فرح، ثم تعلقت بعنق
الأم وقد أضاء وجهها بشرا :

- أمى، لماذا تأخرت كل هذا الوقت يا أمى !؟

وراحت الأم تتأسف لطفلتها عن التأخير، وقدمت لها قطعة
من الحلوى وهي تقول :

- هيا حبيبتي .. كليها .. كلها.. وأعدك بأننى لن أتأخر عنك
مرة أخرى بعد اليوم.. لن أتأخر أبداً. قالت ذلك وجرى دمعها
مدراراً. أحسست ببيكاء الأم يقع على قلبى وقوع النار على
البارود. وتجسد فى نفسى شعور بالحرج لم أتبينه إلا أخيراً.
ويلل العرق جبيني.. فالطفلة نسيتهنى تماماً. والام لم تتبين
وجودى . لم يقع بصرها على حتى هذه اللحظة فى غمار لهفتها
بلقاء البنت..

وصدرت من حلقى سعلة أكثر شبيها بسعلة مقرر. استدارت
الأم نحوى وقد ارتسم على وجهها فزع مباغت.. ثم انتابتها هزة
عنيفة كمن تكون قد صعقت.. فاعتمدت بيدها على حافة السرير
خشية السقوط. تقدمت نحوها. صرخت فى عينيها الجميلتين
وقلت :

- أين كنت أيتها السيدة حتى هذا الوقت المتأخر؟!
إنكمشت على نفسها. علت خديها حمرة قانية. كادت تفقد
توازنها. تداركت نفسها. قالت فى ابتسامة مغتصبة :
- كنت .. كنت فى عملى أيها الجار !

طاف بخاطري أنها تحاول أن تخلق عذرا لهذا الغياب.
صويت إليها نظرة حافلة بالشك. ويبدو أنها تبينت ذلك، فقد
أطرقت في حياء بالغ، قلت في غضب :

- عملك؟! وهل هذا العمل أحق من رعايتك لطفلك؟!
ظهر عليها شيء من الامتعاض، ثم لاحت فوق شففتيها بسمة
ساخرة وهي تقول بصوت عميق يبعث على الرهبة :

- ليس هناك أم في الوجود تهمل رعاية طفلها طواعية..

قلت في ضيق :

- إذن .. لماذا تركت طفلك وحيدة في بيت ليس به أي
إنسان؟!

قالت في شبه حشجة :

- صه.. فإن الآلام تغمر قلبي ولست في حاجة إلى المزيد !
إنني أيتها الجار أعمل مربية عند أسرة ثرية من أجل توفير
القوت الضروري لهذه الطفلة. وقد رأيت هذه الأسرة أن تشاهد
إحدى المسرحيات وعهدت إلى برعاية أطفالها حتى تعود ..
ولكنها .. ولكنها تأخرت.. فاذكر لي أنت. كيف يمكن لمن كانت
مثلى أن تكسب قوتها إن لم تصدع بالأمر !!؟..

ومضت برهة صمت. عادت بعدها السيدة تقول وهي تتلمظ

بالحنق والغیظ وقلة الحيلة :

- قل أيها الجار .. قل .. ما الذى بوسع ضعيفة مثلى أن
تفعل ؟ لقد ترملت .. وتيتمت طفلى وهى دون الخامسة ..
وغاضت السعادة من قلبى وهو لم يزل فى قمة الفرحه ، وانهدم
الأمل فى زوج يعامل الطفلة فى غير جفوة زوج الأم ! فماذا
أفعل ؟! قل .. أم أنك لا تريد أن تنطق بكلمة حق !!

وكأنما تنبته فجأة لوجودى وما قد يثار حول سمعتها من
أقاويل فقطبت جبينها ، وزمت شفيتها ، وقالت فى شبه صراخ :
- ولكن .. قل لى أيها الجار .. ما الذى جاء بك إلى بيتى ؟!
أحسست بدمعة تهطل فوق خدى . بينما وقفت السيدة أمامى
وأشارت بسبابتها إلى الباب وقالت بصوت أحسسته كأمواج من
لهب تحرق وجهى :

- أهذه دموع الشفقة ؟! أم دموع الذئب ؟! قلت لك ما الذى
جاء بك إلى هنا فلم ترد .. أخرج . أخرج من هنا يا رجل قبل أن
تلوث شرفى بسوء السمعة ، شرف سيدة شريفة وبريئة ولا تريد
من دنياها إلا الستر ..

أذهلنى تهديدها الصارخ الذى أشعرنى بالدونية ! ولم
ينقذنى إلا سلوى ، التى صاحت تقول بلثفتها الحلوة :

- إن جارنا الطيب جاء لأننى كنت أبكى يا أمى . ثم قدم لى وجبة من الطعام وظل يتحدث معى حتى نمت ..

إنهارت الأم فوق مقعد كاسفة البال. كانت مضطربة ضجرة. شاحبة.. وهى تعض شفتيها المكتنزتين فى خجل. و.. ومشيت إلى الباب. وأحسست بدوار كاد يلقى بى إلى الأرض.. وسمعت السيدة وهى تقول بصوت متقطع متهدج :

- لابد أنك ستصفح عنى أيها الجار.. فأنا أرملة وأحرص على شرفى من الهمز واللمز..

ومضت لحظة صمت. كنت خلالها أحاول أن أتمالك نفسى، بينما أضافت السيدة فى رجاء :

- أيها الجار ، ينبغى أن تعلم أنه لن يهدأ لى بال إلا إذا علمت أنك قد صفحت عنى ..

قالت ذلك وأغرورقت عيناها بالمع. استدرت نحوها. قلت وأنا أرمقها بكل الإعزاز :

- لاعليك ! فليس هناك ما يدعو للصفح. فهذا واجبك نحو نفسك وشرfk ومستقبل البنت !!

وأحنيت رأسى وأضفت :

- سيدتى ، ينبغي أن تعلمى أننى أحب كفاح الأم.. الأم التى
تخرج إلى ميدان الحياة لتصارع أمواجه المتلاطمة سعيًا فى
طلب الرزق.. ثقى من ذلك يا سيدتى..

وخرجت ، وصوت سلوى ينادينى فى براءة طفولية محببة :
- أيها الجار الطيب. أرجوك .. لا تحرمنى من مؤانستك
الحلوة..

كان الجو بارداً فى الخارج، ولكنى خلته فياضاً بحرارة
الربيع. واندسست فى الفراش، وأنا لا أعلم أى الإثنتين حلت
فى قلبى : الطفلة.. أم الأم !!!
وأغمضت عيني قليلا.. وأحسست كأنهما جزء.. لا ينفصل
عنى.

فتاة نبيلة

أقبل الليل، واضفى على التلال العالية لونا رهيبا من الظلام،
وفى خندق صغير، لا تطل منه سوى رؤوسنا، كان كل الرفاق
يضعون أيديهم على الزناد.. وعلى شفاهم ابتسامة صافية لأخوة
نقية بارة..

كنا فى انتظار كتيبة العدو ونعلم سلفا أنها ستقوم بهجمة
غادرة على اللاجئين الذين يعيشون فى الخيام ! هل نترك هذه
الكتيبة لكى تبطش باللاجئين العزل ؟ أبدا .. أبدا.

ومضت ساعة. رأينا بعدها كتيبة قادمة عن بعد. وما أن
صارت قريبة من متناول رصاصنا حتى شرعنا فى حصدها، ثم
رحنا نتعقب القلول الباقية من أفراد الكتيبة الذين فروا من
أمامنا كجرذان مذعورة..

وعندما انتهينا إلى الطريق البعيد رأينا أشباحا تنتصب جامدة وكأنها مردة تترصد فريستها! إنها كتيبة أخرى للعدو وتريد أن تضيف إلى جرائمها المزيد.

وبعد لحظات.. كان الرصاص ينطلق من فوهات مدافعنا الرشاشة كالسيل المنهمر، وبدأ يشق صمت الليل صراخ الجرحى من أفراد العدو المتجبر المغرور..

وفجأة، شعرت بصدمة قوية في ساقى اليمنى، وبشيء وآخر حار لزج ينزلق فوق ظهري، وتراقصت التلال السوداء أمام بصرى كأشباح رهيبة. ثم.. لم أعد أشعر بأي شيء!

- لقد نجوت من الموت بأعجوبة..!

كانت هذه هي أول كلمة سمعتها من الطبيب المعالج. ورحبت أرمق الطبيب وأنا ساكت خائر. وحز في نفسي أن أرقد فوق السرير وأنا شبه عاجز بعيدا عن المجاهدين.. بعيدا عن الرفاق الذين أخذوا على عاتقهم تطهير أرضنا شبرا بعد شبر من أرجاس الصهيونية التي تريد أن تستولى على أرضنا بالقوة!

وقضيت قرابة الشهر وأنا طريح الفراش لا مؤنس لى إلا الممرضات يسعين إلى بين الفينة والفينة وفوق ثغورهن بسمه مشرقة. لقد فقدت ساقى .. و .. وجزءا من كتفى! وحز في

نفسى أن أبقى عاجزا بعيدا عن بقية رفاق الكفاح !

وقد حدث مرة أن كنت أتسامر مع إحدى الممرضات وهى تحاول جهدها أن تجعلنى أسيطر على نفسى ثانية وأسعى إلى أمل جديد، وبينما هى تحدثنى.. إذ بجريح جديد يجئ وهو قائد فى إحدى فرق المقاومة الشعبية.. فتطلعت ناحيته على أجد مؤنسا ورفيقا.. فإذا بى أصعق وأكاد أصرخ عاليا :

- لا أريد أن أراه .. لا أريد أن أراه..

لم يكن وجهه يطالعك منه سوى حروق فظيعة، وتشوهات بالغة.. كان قطعة من اللحم الملطخة بالماء.. عندئذ فقط هان على خطبى. وعرفت أن تلك الساق التى فقدتها أهون بكثير من هذا الشاب الذى طمست قتابل النابلم.. الرهيبة الفظيعة.. وجهه إلى الأبد، وهو مازال غصنا رطيبا..

وبينما تجول فى نفسى هذه الخواطر السوداء ، إذا بى أجد شيئا يتحرك فى وجهه هما الشفتان، ثم أخيرا أسمع صوته قويا رائعا وهو يبدؤنى أنا.. بالتحية !!

استجمعت شجاعتي وأخذت أحاول جهدى أن أهون عليه مصابه، ولكنه ابتسم.. أو كأنه يفعل ذلك وقال لى :

- إننى لا أهتم بما أصابنى .. ولكن .. لا أدرى كيف يمكن

لخطيبتى أن ترانى وأنا بهذا التشويه..!!

كان يقول ذلك وهو يقبض على عمود السرير بشدة حتى
لكأنه يريد أن يعتصره. وتدخلت الممرضة معترضة على هذا
الرأى، وأشارت عليه أن يرسل فى طلب خطيبته فى الحال،
وبخاصة أنها تعرفها!

شعرت بال دنیا كلها تسود فى عيني وهو يتوسل إلى
الممرضة ألا تخبر خطيبته ولكن الممرضة أصرت على أن تعرف
الحقيقة. فقال الشاب ونبرات صوته تدل على القلق والانزعاج:
- أرجوكى ..! لا تخبريها .. لا تخبريها!

وكانما أدركت الممرضة ما يجول فى خاطره، فقبل أن يوجه
إليها أى سؤال، كانت قد أجابته بأنها تعتقد أن خطيبته لن
تصدم برؤيته على هذه الحال!

وأوما الشاب الذى تلفه الضمادات موافقا، ولكن دون أن
ينطق بكلمة واحدة.. وأسند رأسه على الوسادة وغرق فى
التفكير.

.....

وأخيرا، جاءت الخطيبة، وشعرت بأنفاسى تكاد تجمد فى
صدرى وأنا أرمقها، كانت فتاة غضة بل أية من السحر

والجمال. وما أن وقع نظرها على خطيبها حتى ارتسمت على
شفتيها ابتسامة الأمل، واكتسى وجهها بسعادة اللقاء.. وكأن
خطيبها الحبيب لم يفقد في هذه الحروب الضروس شيئاً.. مما
جعل خطيبها يطمئن.. ويستسلم إلى ذراعيها اللتين أطبقتا عليه
.. حبا وإخلاصاً؟

فتاة صامئة

كلما اقترب موعد زيارتي لأسرة خطيبتي «كوثر» انتابني الضيق والحق، كالإنسان الذي يميل إلى الهواء والعزلة ويتدخل في حياته فجأة شخص آخر يجبره على مشاهدة حفلة صاخبة تختلط فيها الصرخات بالصفيير.. مع بكاء الأطفال!!

فقد اكتشفت أن خطيبتي «كوثر» تنظر إلى من عل كأنها تعتقد أنها قد انحدرت من أرومة لم يكن يجب على مثلي أن يتطلع إليها، وهكذا أدركت أن خجلها المصطنع لم يكن إلا ستارا لعقد القرآن!!

فجعت في خطيبتي وانتابني الندم لأنني لم أختبر أخلاقها وطباعها وعاداتها قبل أن تقع الفاس في الراس كما يقولون. لماذا أراها متعالية، لماذا تلوذ بالصمت، بل ماهي الأسباب

التي تجعلها تميل إلى العزلة وقد عقد القرآن وانتهى الأمر؟! طاقت برأسي كل هذه الخواطر ولم أجد جواباً مقنعاً. إنها شريفة ليس في ذلك ريب، عفيفة ليس في ذلك شبهة، أسرتها مستقيمة ومحافظة - ولم يحدث يوماً في حياتها ما يشين، هذا ما قاله لي صديقي «رجاء» الذي قدمني إلى أسرتها، وهذا هو أيضاً ما اكتشفته أنا فعلاً، ولكن كوثر فيها شيء معقد. شيء لم أكتشفه بعد.

إن كوثر جميلة تبدو على تقاطيعها سيماء الطهر والخشوع ولكن صمتها يلقي على جمالها قناعاً من البرود، متحفظة ولكن يشوب هذا التحفظ نوع من التكلف الفاجع، فهي إذن جامدة، باردة، صامتة.. ومعنى هذا أن طبيعتها لا يمكن أبداً أن تلتقي مع طبيعتي المرححة!.. ولو أدركت ذلك منذ البداية لآثرت الهروب من طريقها وتمنيت لها السعادة مع شخص «بارد» غيري!! ولكن.. إن الاتفاق على «الزفاف» تم وفاتت الفرصة.. فهل أسجن نفسي بيدي مع فتاة أعلم سلفاً أن طباعها تتنافر مع طباعي؟!

واقترب موعد الزيارة وأنا متردد، تطوف بذهني أفكار وخواطر قابضة، ولكن والدها كان قد دعاني على العشاء ولم أرفض دعوته، وليس من حقي إهدار هذا الوعد، وهكذا.. أخذت

طريقى إلى بيت كوثر مضطرا.. !!!

وفى الطريق هجس فى صدرى خاطر غريب هو التحلل من قيود هذا الزواج، فأنا لا أريد أن أتزوج من دمية جميلة، ولست من الغفلة بحيث أرتبط بفتاة شبه بكاء ، والحل الوحيد فى مثل هذا الظرف أن أبوء أمامها جافا، أكسو وجهى بطبقة من الجمود، وأتجاهل وجودها، لن أتبادل معها الحديث ولا النظرات.. هذا هو الرد الوحيد للخروج من هذه الورطة!!

وفى المنزل جلست والكأبة تخيم على قلبى، وكانت والدة كوثر تتحين الفرص لتبسم فى وجهى، ووالد كوثر يرسل عبارات الترحيب بلا حساب. أما شقيقة كوثر الصغرى «نوال» فقد أخذت تروح هنا وهناك بمرح، وفجأة رمقتنى وقال ضاحكة :

- أرجو أن يسرك طعامنا يا كمال.. لقد صنعتة كوثر بنفسها.. رفضت أن أضع يدى فيه.. وهى تريد أن تسمع رأيك فيها كست بيت !

الأسرة طيبة، تحاول أن تزيل بقايا الارتباك من نفسى.. تخصنى بالعطف والحب كائنى فتاها الوحيد المدلل ، لكن كوثر وحدها هى التى تهمنى ، هى التى سأرتبط بها مدى الحياة، هى التى ستجعل من حياتى قصة جميلة.. أو مأساة مروعة!!

ودخلت كوثر مرفوعة الرأس، عابسة الوجه، كأنها قادمة لتوها من مأتم، وجلست صامتة كأنها بكاء، والعياذ بالله. هل تحب أحدا غيرى، هل هى شاذة؟! وإذا لم تكن هذا أو ذاك فلماذا تجلس والخجل يكاد يقتلها؟!

واهتز والدها، وهو شيخ هرم نحيل أنك الهرم قواه، وحفظت عيناه شرارة الحياة، ولمس بيد مرتجفة طاقيته الحريية الخضراء التى كانت تغطى صلته اللامعة فى ارتباك وتنحن ونظر لكوثر، ثم حدق فى، وقال وهو يضافحنى بصوت واهن أجش :

- إن كوثر يا ولدى فتاة مرحة، ولكنها ترتبك فى حضرة الغرباء، وأرجو - يا ولدى - أن تخرجها عن هذه العادة المرنولة التى أصبحت لا تتفق مع روح العصر!!

وضحك الشيخ ضحكة قصيرة وهو يرمقنى بقلق، فلم أجبه، ورحت أتأمل صورته الشابة المعلقة على الحائط لأدارى ما كنت أشعر به من حق، فارتفع المسكين قليلا عن كرسيه، وألقى على كوثر نظرة حائرة مبهمة، وعلت وجهه الكأبة، فقد بقيت كوثر مطرقة كأنما قد أصرت على عدم النطق!!

وأقبلت الأم، وقالت ضاحكة:

- أرجو أن تخرج كوثر عن عاداتها، إنها تميل إلى العزلة ،
ليس بها عيب وفى الحق .و.و..

ولم تستطع الأم أن تواصل كلامها وهى ترى كوثر مطرقة
شاحبة تكاد تغوص فى المقعد، وضحكت الأم ضحكة قصيرة
وخرجت مهرولة كاسفة البال. ثم سادت فترة سكون، كان فى
خلالها الشيخ يسلط على باستمرار نظرة تدل على مدى ما
يعتمل فى نفسه من الأسف لجمود ابنته غير المتوقع، وأخيرا
بدا له فجأة أنه وجد موضوعاً للحديث يبذل ذلك الصمت، فقال
بصوت عميق مبهم :

- اؤكد لك أن كوثر لطيفة، ولكنها خجولة جدا، وأرجو أن
يزول هذا الخجل فى وقت قريب!!

وتشجعت «نوال» وقالت على الإثر وهى تبسم فى وجهى:
- لماذا لا تخرجان فى نزهة خلوية تمحو هذا التكلف الذى
أراه فى غير موضعه ؟!

قالت ذلك وضحكت عاليا، وفى الحق أن نوال أشاعت جوا
من المرح، وتمنيت فى قرارة النفس لو أنها هى التى كانت زوجة
لى بدلا من هذه البكماء !!

ولكى أخرجها عن دائرة الصمت، حبذت الخروج فى تحفظ،

فى حين أن والدها الشيخ كان يعيرنى أذنا صاغية، إذ كنت أرى
رأسه يرتفع شيئا فشيئا ، وأرى قبسا يضىء وجهه الضامر حتى
يكاد يمحو منه تجاعيده، وقال :

- هذا صحيح.. وأعتقد لو أنكما خرجتما قبل عقد القرآن لما
كان هذا حالكما!!

وضحك وهو يرمق كوثر التى أطرقت خجلي، ولكى أظهر لها
أنى جدير بهذه المنحة المفاجئة رمقتها وقلت :
- ما رأيك يا كوثر ؟!

قلت ذلك وكنت أصبح فيها منفجرا.. انطقى أيتها البكماء!!
وبينما كنت أتوقع منها الموافقة وأن هذه الدعوة تكسبني
أكبر قسط من اهتمامها، رأيت دهشا أعراض الملل والضجر
ترتسم على جبينها، فتبينت عندئذ أنى سئ الحظ مع هذه الفتاة!
وأخيرا لمعت فى ذهنى حيلة جهنمية لا تليق فى مثل هذا
المجلس ، ولكن المضطر يركب الصعب من الأمور كما يقول
المثل، فلماذا لا أنتهز هذه الفرصة.. فرصة إعراضها عني،
وأتمسك بمسألة الخروج معها؟

وفى الحق وجدت أن هذه الفكرة وجيهة جدا، لأسبر غورها
وأقف على حقيقة مشاعرها، فإن قبلت كان بها ونعمت، وإن

رفضت فليس ثمة ما يحول بيني وبين قصم القرآن في مستهله
سألقى عليها بالكلمة الفاصلة عندئذ وأنا مرتاح الضمير...!!

وأرسلت بصرى خلصة إلى كوثر، فوجدتها تفرك راحتها
بعصبية، كأنها تبذل مجهودا فوق طاقتها لتجلس معي، أو كأنها
تستهجن هذه الجلسة العائلية التي يبدو أنها قد أُجبرت عليها !
وأخيرا، رفعت رأسها ورمقتني، وخيل إلى أنها ستعتذر،
وتنصرف، ولكنها قالت في تودة وبلهجة لا تشجع إطلاقا علي
الحرص عليها كزوجة المستقبل :

- أعتقد أن خروج الفتاة مع الشاب منفردة قبل الزفاف..
ليس من الأمور المستحبة إطلاقا!!

وكدت أصبح محتجا : عن أي فتاة وأي شاب تتحدثين يا
كوثر ؟!

وفي هذه اللحظة ظهرت والدة كوثر على الباب، واختفت
الابتسامة من وجه والدها الشيخ وهو يرمق غضبي المفاجئ،
وراح يتبادل النظر مع زوجته وابنته نوال في حيرة كأنه يقول
لهما «أنظروا.. إن هذه الفتاة خلقت من جماد.. وإن تصلح
كزوجة إطلاقا!!»

وقالت والدة كوثر على الفور:

- أنا أحبذ خروجكما غدا وقت الأصيل فى نزهة خلوية ،
أضيف إليها سهرة فى مسرح البالون تجمعنا .. فما رأيك يا
كوثر؟!

قالت ذلك وحذبت كوثر بنظرة تحمل ألف معنى ، أو كأنها
تقول : هذه هى فرصتك الأخيرة حتى لا يخرج خطيبك عن طوره
ويلقى بالكلمة التى تندم عند سماعها كل فتاة!!
وحملت نوال فى أختها كوثر دهشة، ثم رمقتنى وقالت
بحماس :

- مسرح البالون؟! يالها من فكرة رائعة يا أمى؟! وقال والد
كوثر فى اغتباط :

- هذه فكرة حسنة! ولو أن ذلك سيكون على حسابى لأننى
كما ترون لا أستطيع أن أبرح المنزل!
وضحك الشيخ، وراحت الأعين كلها ترمق كوثر.

ودارت كوثر بعينيها، وتضرجت وجنتاها، وبدا عليها المرح
فجأة، ومضت تتحدث كأنها كانت سجيئة وانطلقت، وبعد لحظات
أولتنى اهتماما وإعجابا أذهلانى، بل وحمدت للأقدار أن هيات
لى فتاة مثلها .. لماذا كان يبدو عليها الجمود؟ لماذا كانت
صامتة طوال أسابيع؟ هذا ما لم استطع أن أجد له تفسيراً،

غير أنني تنبّهت إلى أن كوثر على قدر كبير من الذكاء بعد أن
انحلت عقدها.

وطابت السهرة، وتغلغل حديث كوثر العذب حتى أعماق قلبي،
وعندما خرجت، ضغطت أم كوثر على كفي وقالت بمرح :

- كن مترفقا بكوثر يا ولدي.. إنها لم تختلط بأشخاص
غريباء.. إنها فتاة طيبة فيها عطر الأنوثة وطهارتها.. وما شاهده
من غرابة تصرفاتها لم يكن في حقيقة الأمر إلا قناعاً زائفاً
يحجب فتاة نكية مرحة وطيبة.. و... وأرجو لكما السعادة من
قلبي !!

وترقرقت الدموع في عيني، لبساطة الأم وطيبتها. وخرجت
من المنزل وصورة كوثر تملأ قلبي، وهي التي كانت من لحظات
فقط تبدو لي كالتمثال.. وبينما كنت في الطريق. قفز أمامي
سؤال كعلامة استفهام ضخمة : ترى هل جميع الفتيات هكذا ؟
لا أدري !

فتاة شريفة

كان والد «وفاء» يجلس فى شرفة قصره فوق مقعد من القماش وظلال الأشجار تهتز فوق رأسه العارى الأشيب ، ويده اليمنى تداعب هرة حمراء تقبع على ركبتيه فى هدوء بينما وقفت ابنته وفاء أمامه منكسة الرأس ، شاحبة الوجه .. أما أنا فقد كنت أقف مستندا على باب الشرفة ، أترقب بلهفة فراغ الشيخ من إصدار قراره بشأن خاطب ابنته وفاء .. تلك التى كنت أحبها فى صمت .. وبلا أمل !!

وكان ذلك فى أواخر شهر مارس ، والهواء قد بدأ يحمل تباشير الربيع ، وشذى الأزهار يعطر الأرجاء ، ولم يكن يوجد فى الشرفة سوى مائدة صغيرة من الأبنوس ، عليها كوب وعلبة وتبغ ، وقداحة مفضضة تلمع فى نور الشمس . وكانت وفاء ترتدى ثوبا بسيطا رمادى اللون ، ولاتضع من حلى الزينة غير عقد من اللؤلؤ يمتد فى بريق أخاذ حتى أسفل نحرها .

وترك الشيخ ابنته لحظات تائهة فى بيداء من الحس

والتخمين ، وفجأة تعقد جبينه ، ورمق ابنته وقال فى سخرية لم
يستطع كتمانها :

- هل يمكن أن تقولى لى بأى شىء أنت معجبة بخطيبك ؟!

قال الشيخ ذلك وأزاح الهرة من فوق ركبتيه بحنق ، بينما
تضرجت وجنتا وفاء وقالت وكأنها تبكى :

- أنا لست معجبة به فى شىء ، ولو شئت الدقة فان صورته
لاتعلق بذاكرتى البتة ! ولكنك قبلته خطيبا لى ووعدته بالانتظار
.. أنت الذى وعدت ! ولا أحب لك ان تخلف الوعد . و.و ..

* * *

وارتج على وفاء ، ورمقها الشيخ رمقة سريعة ، وانثنى نحو
السياج الحديدى ، وأخذ نفسا طويلا كأنه ينعم بهواء الصبح
الليل ، وفجأة استدار نحو ابنته وحدث فيها وقد فاض به
الغيظ، وقال :

تمام !! لقد عرف الوغد كيف ينتزع منى مثل هذا الوعد
حقا ! ولكن المسألة ليست مسألة ألفاظ تتردد دون أن تحمل أى
معنى . إن ذاكرتى قوية ! وقد صرح لى بأنه مسافر الى
الاسكندرية ليعد منزل الزوجية ، ووعد أيضا أنه بمجرد أن يتم
ذلك سيعود فى الحال ، وطلب مهلة لذلك شهرين .. ولكنه لم يعد

، لا بعد شهرين .. ولا بعد .. عامين !!
وأشعل الشيخ لفاقة أخذ منها نفسا زفره فى ضيق ، وعاد
يقول فى غضب وجسمه كله يهتز :
- لا . لا . لا . ان احتقار الفتاة الى هذا الحد ، وإهمال شأنها
على هذا النحو ، مظهر يدل على عدم الرغبة فيها .. والانصراف
عنها !!

ولوى الشيخ رأسه نحوى ، وأضاف مستشهدا بى :
- أليس كذلك يا رأفت ؟ !!
وفى قفزة ، أو قفرتين .. لا أدري !! كنت أقف أمام الشيخ
فى منتصف الشرفة ، (وفركت) يدى فى حبور وغمغت :
- أجل ، ياسيدى .. ان الأمر لكذلك حقا !! ان كل ذلك حق
ورب الكعبة !!

وحدج الشيخ ابنته بنظرة ساطعة نافذة وقال فى تشف :
- أسمع يا وفاء ؟! اننى لأعرف أن خطيبك وغد .. مستهتر
.. .. أفاك . أجل . أجل .. فإن صديقا مخلصا لى أحاطنى علما
بأنه وغد !! وها أنذا ، أبوك ، الهرم ، الذى لا يزال بالرغم من
ذلك رجل علم وفكر .. يجد نفسه مضطرا لأن يكشف لابنته عن

كل شيء . ومن الطبيعي أنه ليس من حق الاولاد وضع نصيح
والديهم موضع الريب !! فقومى ، يا ابنتى .. علام تنتظرينه بعد
أن كشف عن نفسه ، بإهماله ، الغطاء !!!

واهتزت وفاء في وقفها كمريض يترنح ، ورمقتنى وتضرجت
وجنتاها ، وتمتمت بصوت مختنق :

- أه يا أبى العزيز ! لكم كنت أفضل أن ترجىء الحديث حول
هذا الموضوع الى فرصة أنسب ! ولكن مادمت قد سحبت
القناع وأصبح الأمر على هذه الدرجة من العلانية ! فان ابنتك
التاعسة لا تجد مفرا ، من أن تقول انها ترى في النكوص عن
العهد خدشا للاحترام ، وفي التحلل من الارتباط ، هتما
للاخلاق !!

وضرب الشيخ زوايا المقعد بقبضة يده وخيل لى أنه
سينهض ويلطم ابنته ، ولكنه قال في حماس : تمام ! تمام ! هذا
عين الحق !! ومن يقل غير ذلك فهو مافقون !! ولكن سلوك
خطيبك قتل هذا المبدأ القويم ، وفى الواقع ، يا ابنتى ، أنا
لست مطمئنا الي مسلك خطيبك من أول يوم ، فقد لمحت
الاستهتار كله يتجمع في عينيه عندما ضيقت عليه الخناق
لتحديد موعد لعقد القران ، وكنت وشيكا على رفض طلبه فى

نفس اللحظة ، ولكن أمك .. أه يا ابنتى .. أجل ، أجل . أمك
التقية السليمة النية زكته لى ، منساقة فى ذلك وراء سيدة
تعرفها من زمن ، ولكن .. تلاعبه بنا ، يا ابنتى ، أمر لم يعد
يلأنم كرامتى . حتى أمك نفسها أصبحت تشاطرنى هذا الرأى
بعد أن نحت جانبا كل ما احتشد فى رأسها من نقاة !! وأنت
يا ابنتى لست الافتاة عديمة التجربة كأموك !!

واهتزت وفاء كائنها تجرعت كمية مركزة من أقوى الخمر ،
وشحب لونها وقالت فى حشجة :

- أه يا أبى العزيز ! لقد لمست وترا حساسا فى النفس !!
وليت ابنتك تستطيع أن تحث فى الوعد بلا وخز الضمير .. !!
أجل ، يا أبى .. فان تمسكى بالعهد ! انما هو من صنعك أنت ،
ولست بمستطيع أن تلومنى على ذلك !! ولكن ، ان طاعتك هى
أول واجباتى ، فهل تجيب لابنتك الكليمة القلب مطلباً !!!

ويظهر أن الجملة الأخيرة بدت للشيخ غامضة المعنى ،
وكأنها خشى أن يقع فى شرك ، فقال بحذر :

- طبعاً . طبعاً . ان طلباتك كلها مجابة بشرط أن تكون
معقولة .. فما هو ياترى هذا المطلب !!

- رسالة لخطيبى حمدى .. رسالة منى .. حتى أقتنع بأننى

منحته فرصة يبرر بها مسلكه !!

وحدج الشيخ ابنته مليا ، وغاص فى المقعد ، وصوب عينيه نحو الأرض ، وتعدّد جبينه لحظة ، ولم يلبث قليلا حتى فرك يديه فى اغتباط ، وتمتم :

- ان ذلك حكمة منك وأصالة رأى !! هيا اكتبى الرسالة واعهدى لرأفت باسقاطها فى صندوق البريد !!

وكفراشة هاربة من الشرنقة ، تسللت وفاء الى غرفتها ، وبقي الشيخ ينصت لوقع أقدامها حتى تلاشت ، ثم حدق فى بوجه مكفهر ، وأخذت أسنانه تصطك كرجل عراه الزمهرير ، وأمرنى فى لهجة متقطعة باسقاط الرسالة والعودة سريعا وهو يكاد ينشق غيظا وغضبا : يا للشيخ من ثعلب عجوز !!

ومددت له يدي بالدفاتر ليطلع على الحسابات ، بيد أنه نهض فجأة وقال بتأفف :

- لا عمل الآن . لا عمل الآن ! ومن الجوهرى أن نتفاهم على ذلك فى المساء .. فإلى المساء !!

ومشيت الى غرفة وفاء وأنا شديد الدهش من حرصها على وعد شاب يعاملها بمثل هذا الاسفاف .. واهدار كل التقاليد والقيم والمثل . وبرغم شعور البرم الذى أحسسته من أداء هذه

المهمة ، الا أن حبي لوفاء جعلنى أتناسى هذا الموقف المحقر .. لشخصى !! وعند باب غرفة وفاء صدرت من حلقى سعة عالية ، وجاعنى صوتها الساحر بأنها فرغت من كتابة رسالتها ، فأسندت ظهرى الي الحائط ، وجرفتني الأفكار ، وتزايد شعورى بالألم والمهانة ، بل أحسست أن قلبي تحت أقدام قوية جبارة سحقته بلا رأفة !!

والواقع ان وفاء ، فى الأيام الأخيرة ، كانت قد أصبحت أكثر من صديقة لى ، ومن الأسرار التي أفضت بها الى ، أنها لا تكن فى نفسها شيئا من العطف لخطيبها ، بل إنها تكره أن تراه ، ولكنها فقط تحترم وعدها ! وكانت كثيرا ما تؤكد هذا المعنى، وهي تقول فى بسمة حزينة « ان الانسان الذى يخل بالعهد يجب ان يستأصل من المجتمع الانسانى ، يجب ان يباد كحشرة ضارة مؤذية !! » .

وبعد أن تجول بنظرات جافة حزينة هنا وهناك ، تنتهد ، وتضيف وشعاع من نور سماوى يضىء جبينها « ولست أظن يا رأفت أنك تريد لى أن أخل بالعهد بالدرجة التي أرى فيها نفسى انसानه يجب ان تستأصل من المجتمع ، أو ان أصبح فى نظر نفسى أما كنويا أمام أطفالها الذين ينامون فى المهد ! » .

وفاء علي جانب كبير من نقاء السريرة فعلا ، تعيش فى قصر والداها حياة مثالية ، تسودها نزعة فلسفية ، وتشغل وقت فراغها بقراءة الكتب هربا من الضيق والملل ، وتقول : « ان القراءة كالفن ، كلاهما يسمو بالروح ويوسع الافق ، ويفتح أمام الانسان أفاقا من العلم والمعرفة ، ويجعله أقدر من غيره على فهم الحياة » .

وعندما تسلمت الرسالة التى كتبتها وفاء لخطيبها الأرعن ، انتابتنى هزة عنيفة من لمسة يدها البضة ، ومن صوتها الدافئ الساحر وهى تحذرنى من التأخير لتلحق بقطار الليل ، حتى اذا تحررت من عهده ، لا يكون فى مسلكها ما يشين ، ويمكن لها أن تتخلص من تائبب الضمير ، وما تقاسيه من هجره ... وظلمه!

وحدجتى بنظرة تفيض بالدمع والسحر واستدارت فى رشاقة وظرف الى غرفتها وهناك انكفأت فوق حافة النافذة ، ولمحت جسمها يهتز ، ونشيجها يتعالى ، فتسمرت فى مكانى ، ورحت أحرق فيها باشفاق ، ودفعتنى الحيرة والارتباك أكثر مما دفعنى الفضول الى عدم التحرك . وتمثل لى وجه خطيبها « النذل » وهو يسخر منها ، غير مبال بما قد يسببه لها من ألم

النفس ومن سوء السمعة ، فكورت يدي ولوحت بها فى الهواء
وبنفسى رغبة شديدة فى تحطيم صاحب ذلك الوجه أو سحقه
تحت قدمي كأحقر حشرة !

وأحسنت وفاء بوجودي . ويبدو أنها ظننت أني أنظر إليها
خلسة ، اذ استدارت نحوي في حركة مفاجئة . وراحت تتأملني
بنظرات حادة مكتئبة ثم اقتربت مني وقد أمسكت برأسها بين
يديها وصرخت:

– رأفت! لقد كنت أشعر نحوك بعاطفة صداقة ، ولست بعد
اليوم أشعر بمثل هذا العطف ، ويؤلمني أن أراك مرة ثانية وأنت
على مثل هذا المسلك !

أدركت في الحال أن وفاء قد أساعت بي الظن ، فترقرقت
الدموع في عيني ، وخفضت راسي شعوراً بالاستخذاء ، والتوت
زاوية فمي في هزة عصبية .. فأنا لا أتقهقر أمام أشد الأشياء
هولاً ، ولكن كان يفزعني سوء الظن ! . اذ ليس كمثله شيء يحيل
قلب صاحبه الى أتون لا يخدم !

ولاحظت وفاء ملاح على وجهي من بوادر الألم ، فاقتربت
مني ودفعتنى برفق ، وقالت في كبرياء :

– لقد صفحت عنك! اذهب. ولكن إياك أن تفعلها مرة أخرى!

وهرولت الى مكتب البريد وأنا أحس برسالة وفاء كقطعة من
جمر تتلظى بين أناملى ، وأمام الصندوق ساورتني فكرة خبيثة
.. لماذا أسقط هذه الرسالة؟ بل لماذا لا أمرقها؟! ووثبت
الرغبة المروعة الى رأسي ، مفاجئة مذهلة ، وخفق قلبي بشدة ،
وهتفت لنفسي بهدوء الأنفاس : ان وفاء لن تكتشف ذلك ، ولو
أن والدها علم بما فعلت ، لتقبل ذلك، فى ارتياح كبير ، فانا من
أعلم الناس بما يضمرك ذلك الشيخ لخطب ابنته من سوء النية !
ومضت لحظة ، أو عام ، لا أدري ، وأنا واقف متواريا فى
ظلال مبنى البريد ، مسنداً ظهري الي الصندوق ، كأنني اخفيه
عن عيني ! أو من لذعة الضمير التى أحسستها كسياط تلهب
رأسي !

وفى اللحظة التى استدرت فيها لأعود الى القصر ، اقترب
منى موزع البريد ، وسلمنى رسالة تبينت أنها من خطيب وفاء
لوالدها . يا للشيطان ! هتفت بذلك لنفسي ، وعدت أترنح فى
الطريق الى القصر وأنا أستشعر فى نفسي جوى يحرق صدرى
، فيها هو خاطب وفاء قد تيقظ أخيرا بعد أن ظننته قد تنحى عن
طريقي ! . ولكن .. من أنا حتى أجرؤ على طلب يد وفاء؟!

شعرت بذلك السؤال بهبط فوق رأسي كلسعة السوط ، فانا

أعمل وكيلا لمكتب والد وفاء .. أنام وأعمل فى غرفة ضيقة ،
منخفضة السقف ، غاصة بالرفوف والكتب والسجلات ، ما من
مرة تنبهرت الى نفسى فيها الا وشعرت بالاكئاب يغزو قلبى
كجيش مظفر !

غرفة موحشة فى النهار ، مظلمة كئيبه ، أما فى الليل فلا
يؤنس وحدتى الا تواب الجردان بين جدرانها الرخوة المعتمه
وقرضها لجوانب الأرفف ، وفى الحق لست جديراً بمثل هذا
العمل ، ولكن والد وفاء عطف على ، وألحقنى بخدمته بعد أن
توفى أبى ، ولم يبق لى فى الحياة من أمل أوصل به تعليمى أو
أطعم أمى التى ترملت وهى فى ريق الشباب ، وأثرت حياة
الترمل ، بما فيها من شطف على زوج لها قد يشقىنى فى قابل
الأيام!

صفعنى واقع حياتى المر !! اسودت معالم الطريق أمامى ،
وعند القصر وثبت الى رأسى فكرة شيطانى : لماذا لأفرض
خطاب «حمدى» وألقى نظرة على محتواه؟! وتقبضت أصابعى
على الخطاب فى فزعة من يقظة الضمير ، ولكن الرغبة الخبيثة
كانت قد سيطرت على ، فأدنيته من فمي لأبلل أطرافه وأفتحه بلا
أثر يذكر ، وفجأة نوى فى أذنى صوت أحسسته كقرع الطبل :

هكذا الأمانة والا فلا !!

هبطت يدي الى جانبي في تخاذل . مشيت في ممر الحديقة
والزهر يتراقص امام بصرى كدم مسفوح لانسان فاقد الشرف
والذمة والضمير !! .. وردتني الى عالم الوجود صيحة من وقاء ،
عدت اليها .. ناولتها الخطاب . فتحتته في شرود . أخذت
تتصفح بعينين غير مكرثتين . ركزت بصرى .. بل حواسي
كلها ، في دراسة ما يطرأ على وجهها من مختلف الانفعالات ،
وأخيرا هزت رأسها ورمقتني وقالت في ارتياح :

- حمدا لله . لقد عدل حمدي عن خطبته ، وقد أصبحت الآن
حرة من قيد وعده .. الثقيل !

شعرت بالدنيا كلها تضحك في عيني قلت وأنا أطلع اليها
لأول مرة في أمل :

- أليس في هذا ما يحزنك حقا .. ياوفاء ؟!

رمقتني وضغطت أسنانها الناصعة فوق شفيتها السفلي ثم
هزت رأسها وابتسمت في غموض وقالت : إنك لم تصبح رجلا
يحمس مسئولية الكلمة يا راقت ! الشئ الوحيد الذي يؤلم نفسي
هو الاخلال بالعهد !! واضطربت الكلمات فوق شفيتها ورمقتني
وأطرقت ثم رفعت يديها وغطت وجنتيها الملتهبتين وجرت الى

الداخل وشعرها الأسود يقفز فوق جبينها البديع ، وهتفت
لنفسى فى نشوة :

وحق الأنبياء والقديسين والشهداء .. إن وفاء .. تحببى !!

فركت يدى فى غبطة . همست لنفسى فى مرح :

- عال! . لم تبق الا كلمة تقال .. وتصيح وفاء خطيبة لى !
وفى المساء لذت بغرفة المكتب ، أراجع أعمالى للمرة العاشرة
بعد الألف ، وطيف وفاء يتراقص أمام بصرى كملاك . وتمثلت
وجهها المستدير الطيب . فى حلم لذيذ شائق ، لماذا لا أثير
مسألة حبى لوالدها فى هذه الليلة ؟! وتمتعت لنفسى بلهجة
محزنة مضحكة معا : أعتقد أن هذا الطلب قد أصبح الآن فى
منتهى الاعتدال !

وسمعت وفاء تنادى على ، وفى اللحظات التالية كانت تحدجنى
مليا وقد استندت بأناملها البيضاء فوق حافة المكتب:

- إن أبى ينتظرك منذ أكثر من ساعة فى حجرة الجلوس
لتقدم له دفاترك العتيقة!

ومشيت خطوتين، ثم استدارت نحوى فجأة وقالت فى
تساؤل:

- رأفت.. لماذا يبدو عليك الإضطراب ؟!

وتأملتنى برهة هزت بعدها رأسها وانطلقت إلى الخارج
كالحم. وتأتببت الدفاتر وخرجت إلى والد وفاء وطلب يد كريمته
يتلاعب فوق شفتى كسفينة تمخر مياه محيط فى رسوخ. وقدمت
الدفاتر له ولكنه أشار إلى مقعد بجانبه وتمتم:

- اجلس. لقد أصبحت أثق فيك ولك أن تتصرف كما تشاء
دون الرجوع إلى بعد أن تيقنت من صدقك!

وطاف بخاطري أكثر من خاطر مبهج، وتمتمت لنفسى وأنا
أتظاهر بمراجعة الدفاتر: انتهى الاشكال!

وأقبلت وفاء وقدمها الصغيرة تضرب الأرض من تحت طيات
ثوبها الأزرق، وجلست جنب والدها ولم أستطع أن أحول بصرى
عنها، ورمقتنى بغتة ورمشت بأهدابها الطويلة، وقالت بصوت
ساحر أخاذ:

- ستتناول طعام العشاء معنا يارأفت. ويعد ذلك هناك ما يود
أبى أن يقوله لك !

قالت ذلك وأدارت رأسها نحو أبيها وغمزت له بعينها، ثم
حدجتى بنظرة من عينيها الساطعتين ، فخفق قلبي بشدة ،
وتمتمت فى وقار مصطنع:

- شكرا لك يا وفاء، ولكنى مضطر لمراجعة الدفاتر و..

الاستذكار للحقوق.. و .. و ..

وتوقفت الكلمات فى حلقى ورحت أحرق فيها مبهوتا مبهورا،
بينما صاح والدها يقول فى غبطة:

- أنت اليوم تستحق التكريم لأنك حملت لابنتى بشرى
الخلاص من شخص كنت أستثقل ظله، ثم انك قد صرت كفرد
من أسرتنا.. فعلام التكلف يابنى ؟!

وللمرة الثالثة، أو الرابعة، لا أدرى، فركت يدى فى حبور،
وهتفت لنفسى فى زهو:

عال! لم تبق إلا إجراءات شكلية وتصيح وفاء شريكة لحياتى!
وأطلق الشيخ ضحكة مرحة وهو يرمق ابنته اعجابا، وفجأة
زوت وفاء ما بين حاجبيها وأطرقت وقالت باكتئاب:

- ليتنى صدعت بأمرك يا أبى فلم أرسل خطابا لذلك الوغد!
وشعرت بنشوة هزنتى من الأعماق وأنا أسمع وفاء تعترف
بأن خطيبها السابق لم يكن إلا وغدا، وأخرجت الرسالة من
جيبى وقدمتها لها وقلت بانشرح:

- لا تحملى هما! ها هي!

نطقت الكلمة الأخيرة بصوت خلته كرنين طبل فى موقع

حربى! وقفزت وفاء من فوق المقعد منتشية، ومزقت الرسالة
قطعا صغيرة ونشرتها فى الحديقة وهرولت إلى الخارج فى
رشاقة الغزال.

ورمقت والدها وهممت أن أصارحه بما فى قلبى ولكن وفاء
عادت مسرعة وقالت بمرح:

- رأفت. لا تنس أن ترسل فى طلب أمك! فقد طلبت من أبى
أن تعمل أمك هنا. إنها لن تتعب! وسنفرد لها غرفة خاصة
لتكون قريبة منك!

ورمقنى والد وفاء وهز رأسه موافقا وفوق شففتيه بسمة
المانح المتفضل، وقال:

- ان مرتبك ضئيل وقد أردت أن أسدى اليك خدمة فى مقابل
جهودك المخلصة!

أحسست بقوله كنصل سكين حاد يغوص فى عنقى حتى
غايتة. تجمدت أناملى فوق حافة المقعد. تضاربت الأضواء فى
عينى كالوهج. شعرت كأننى أهوى من حالق وأسقط وسط أتون
من لهب. وقفت وقلت بصوت المختنق:

- ان أمى لن تعمل أبدا. أبدا. لا فى هذا البيت ولا فى
سواه.. وأنا على قيد الحياة!

غادرت حجرة الجلوس كانسان يفر من لهب الحريق فى آخر لحظة. انهمرت فوق مقعدى الأجرى كتمثال. مضت فترة وأنا أنصت لخرفشة الجردان فى الأوراق القديمة: هنا مكانك! هتفت بذلك وأنا فى غمرة من حمى اليأس، ورأيت والد وفاء يدخل على بخطوات مسرعة كشبح مزعج ولمس كتفى بيميناه وتمتم وهو يحدق فى:

- ما هذا يا ولدى؟! إن أمامك مرحلة طويلة قبل أن تشق نفسك طريقا بديعا فى الحياة.

أنا أعلم تماما مدى ما ينطوى عليه قلبك، الطيب، من حب.. لابنتى.. إنها فتاة طاهرة نقية ولو أنها متطرفة فى التمسك بالشرف. ولهذا السبب أراها ناشفة الرأس. ولا أريد أن أثير فى نفسها مر الألم بأن أقدم لها فتى جديدا على أطلال فتاها القديم!

و.. وذهلت، وبدرت من حلقى صيحة مختنقة: أحقا.. أ.. أ..
وهز الشيخ رأسه وتمتم ووجهه المتغضن يضىء بنور الصدق:

- أجل.. يا ولدي.. فأنا أعرف كل شيء .. كل شيء!.

يا للشغب العجوز!

ولأول مرة، أشعر بغرفة البدروم تتسع وتتسع كأنها أجمل

قصر في الدنيا!

القصة الجديدة

كنت أجلس فى غرفة مكتبى المطلّة على النيل فى المساء، وكان شهر أبريل قد كسا الاشجار بأوراق ناعمة، وأزهار نضرة. وكانت زوجتى «بدرية» تجلس إلى جانبى ووجهها يسفر عن غيظ مكتوم لا أدرى مبعثه، وخامرنى احساس غامض بأننى اجتاز مرحلة دقيقة، من تلك المراحل التى ترى الزوجة فيها أن «الأدب» هو «الضرة» التى تشاركها فى عطف الزوج، وأننى سأعيش فى دوامة من الغيرة الحمقاء، والمشاجرات التى لا يعلم إلا الله وحده كيف يمكن أن تكون نهايتها!

كانت غرفة المكتب مطلية بلون أبيض، عارية من الاثاث، اللهم إلا من مكتبة صغيرة غاصة بعدد وافر من مؤلفاتى التى نشرت ولاقت رواجاً كبيراً لدى كثير من القراء.. ومن صورتين بديعتين معلقتين على الجدار، إحداهما لفينوس، والأخرى لنفرتيتى. وثلاثة مقاعد مختلفة لا تناسب فيها ولا اتساق، أحدها

من الخيزران، والثانى من القش، وثالث من القماش، أما المكتب نفسه، فلم يكن عليه سوى الأوراق البيضاء، ومحبرة صغيرة، وتمثال من المرمر لأوزيريس!

وقبل أن أشرع فى كتابة القصة التى طلبها منى صاحب مجلة «الأهداف»، للعدد القادم، رمقت زوجتى خلصة، فراعنى أن رأيتها ذابلة الاجفان، وتركت زوجتى تعيش مع فيض خواطرها، وبدأت فى كتابة القصة، ولكن ما كدت أفرغ من كتابة صفحة وأضعها فى جانب المكتب، حتى أخذتها زوجتى بتهلف واضح، وجرت عيناها على السطور..

ثم أخذت ترمقنى خلصة وهى تتظاهر بالقراءة، وأناملها تغوص فى شعرها الأسود بعصبية حتى لقد توهمت أنها توشك أن تنفجر فى ثورة عارمة، وعندئذ فقط أدركت أن ذلك الهدوء لم يكن إلا كالهدهد الذى يسبق العواصف، وأنها تكتم ثورة عنيفة تكاد تمزق فؤادها تمزيقا.

وعندما وجدت بدرية أننى قد توقفت، أطبقت الكتاب وألقت به فوق المكتب فى سأم، وقالت بصوت تبينت فيه رنة الغضب والسخرية معا:

- هل فرغت من كتابة قصتك الجديدة أيها الأديب.. الألمعى؟!

كانت السخرية من الوضع بحيث جعلتني أمتز بين جناحي
المقعد، ومع ذلك أجبت في رقة حتى لا أثيرها.

- لا يا بدرية، فلأول مرة في حياتي الأدبية أرى النهاية
مستعصية على قلمي.

وارتسمت على وجه زوجتي ابتسامة ساخرة، يكذبها إغورراق
عينها بالدمع، وقالت في برود:

- إذن لا مناص من السهر حتى تفرغ منها.. وأقرأها!
وتوهمت أن زوجتي تأثرت بطريقتي البارة في سرد الوقائع
التي هيأتها لسقوط بطة القصة بين وحش أدمى، ورسوخ قلمي
في وصف مشاعر من تفقد أسمى ما تمتلك في لحظة طيش،
وساعد على تكوين هذا الخاطر، الدموع التي أخذت تمسحها
خفية، وأردت أن أتبين صدق ذلك الظن، فقلت وأنا أفرك يدي
سرورا:

- ولماذا كل هذا الاهتمام؟!

انتظرت الجواب وملء نفسي احساس بالفرح والغبطة،
ولكنها أجابت في سخرية أحسست بها ترعش قلبي وتدميه.

- لأعرف كم مراقبا عبثت بهم، ودمرت أخلاقهم، في قصتك.

اللا أخلاقية الجديدة!!

شعرت كأن لكمة قوية تهبط فوق رأسي كالبرق الخاطف،
وبالدماغ تجمد في عروقي، من رأيها القاسي المفاجيء ورمقتها
وقلت بصوت أجوف كأنه صادر من كهف:

- ما هذا الذي تقولين؟!

أجابت بصوت يعرب عن وافر الألم، وهي جامدة الحركة
مطبقة العينين:

- كنت أود أن أخفي عليك شدة تقرزى من كتابتك عن
الجنس، ووصفك الإباحي لمشاعر المراقبة، ولكن إصرارك على
هذا المنهج الوعر، واهتمامك البالغ بوصف أدق أحاسيات
ومشاعر الجنس، أحالت هذا التقرز إلى شيء آخر قد.. يهلك
سماعه!!

قالت ذلك بصوت بدأ قويا، ثم دب فيه الوهن، حتى لقد غدا
كالحشرة، وشعرت كأننى أهوى إلى بئر سحيقة الغور، وبلعت
ريقى بصوت مسموع، وقلت كالمأخوذ:

- أنت تتسين حقيقة هامة، وهى أننى لم أكتب عن الجنس،
إلا لأن هذه الكتابة هى المطلوبة منى لصاحب المجلة!

وشعرت فى الحال بفداحة ما تفوهت به من خطأ شنيع،
ولكن كان قد سبق السيف العزل كما يقول المثل، بينما راحت

أنامل زوجتى تلف حول بعضها فى دورات عصبية سريعة، ثم
حدجتنى بنظرة قاسية، وقالت فى سخرية مرة:

- يا لخبية أملى فيك! ألا تعلم أن قولك هذا معناه أنك تخنع
لصاحب المجلة، لدرجة أنه لو أصدر إليك أمرا بأن تقذف
بنفسك فى مياه محيط، فانك ستفعل ذلك كأنك آلة صماء،
مجردة من الشعور ومن الإرادة ومن كل إحساس بالخطر.. بل
ومن الكرامة؟

كانت الليلة عطرة ساحرة، نسوماتها تهب من الشرفة ندية
منعشة، توحى للأديب بأرق المشاعر وأنبل الأحاسيس، وكانت
بدرية غير طبيعية، ونهاية القصة لا تزال تسبح فى رأسى
كالضباب، ولذا كتمت الثورة التى أحسست بها تجتاح فكرى
اجتياحا، وقلت نافذ الصبر لأنهى النقاش حول هذا الموضوع
بأسرع ما يمكن:

- بدرية. أنت تتدخلين فى أدق شئونى، ومع ذلك أحب أن
أوضح لك أن الكتابة عن الجنس، أو هذا اللون من الأدب، انما
يرضى الكثير من الناس بل إن ألاف من القراء ينتظرون مجلة
«الأهداف» من أجل القصة التى تنكرين أنت على كتابتها و..
وتتقرزين منها!

ولكن بدرجة أجابت فى إصرار عنيد:

- من أجل هذا السبب نفسه، أحب أن أصارحك أنك تسير
فى طريق مدمر لكيان وأخلاقيات جيل بأكمله، فأنت تستمد
الوحي من تصورات خبيثة تجد لها صدى كبيرا فى جيل برىء!
أحسست بالاختناق، فتحت صدر القميص بأنامل متشنجة،
أخذت نفسا طويلا وصرخت:

- يا أظاف الله .. إلى هذا الحد؟!

أجابت بسرعة لم أكن أتوقعها:

- بل وأكثر من ذلك، فقد أصبحت أشعر كائننى أعيش مع
قاتل لأجيال!

أحسست بالحزن يضغط على صدرى، ولكننى تجلدت،
قاومت فورة الغضب، وزوجتى ما زالت فى قمة ثورتها، وقلت
بهدوء لأسير غورها، ولأقنعها بعد ذلك بخطئ ما ذهبت إليه من
سخافة فى الرأى:

أجابت بعمق، وبصوت ثابت واضح النبوة:

- لك أن تسخر كما تشاء، ولكن ثق من أنتى جادة كل الجد

فى وضع حد لكل هذه المهازل.

قالت ذلك وهبت واقفة، وأشارت إلى مكتبتي الغاصة بالقصص، وأردفت بصوت راعد:

- أترى هذه المؤلفات؟ إنها خطيئة مكدسة فوق بعضها البعض، وإن كنت أنت تعتبر هذه المؤلفات انتصارا لك، فانا أعتها وصمة عار تلتطخ جبينك، ثم .. ألا تشعر بأنك مثقل الضمير وأنت تضم تحت سقف بيت زوجية شريف.. هذه الانحلاليات؟!

رمقتها فى كمد. لم أستطع أن أتفوه بحرف. شلت تفكيرى المفاجأة، وعادت تقول بصوت قوى أحسسته كمطارق تتوالى ضرباتها فوق رأسى وتحطمه:

- لقد أدركت أنك تقدم على عمل شنيع، ومن أجل هذا أضمرت الانفصال عنك، عندما تأكدت أنك مصر على الاستمرار فى كتابة هذا اللون .. المقيت .. الذى تسميه أدبا..

شعرت بالمرئيات تتراقص أمام عيني، وقلت بصوت أحسسته يخرج من حلقى كالفحيح:

- بدرية. يجب أن تعلمى أن كاتب الجنس يؤمن بالخير فى الإنسان، يسبر غوره ويتعمق شخصيته وسلوكه، إنها محاولة

استكشاف تفيد ولا تضر، انها تتناول حياة المراهق المليئة
بالحرمان والجفاف، وترسم له الطريق الآقوم، و..

ولكنها قاطعتنى محتدة:

- صه. إن بدرية أدركت ما لم تدركه أنت، ولقد صبرت كثيرا،
كنت أعتقد أنك سترجع إلى جادة الرشد، وتعود كما كنت،
الأديب الذى يكتب ليحقق هدفا نبيلًا، ليثقف ويمتع الناس
الأديب الذى ينير مسالك الحياة لمن ضل، ولكننى وجدتك
تنحرف بأمانة القلم إلى شىء آخر يدمر القلوب والأرواح!

صرخت فى ذهول:

- بدرية . حاذرى ثورتى.

ولكنها مضت تقول وكأنها لم تسمعنى:

- لم تعد تهمنى ثورتك بعد أن قررت مصيرى لم أعد أهتم
بك. دعنى. طلقنى!

أذهلتنى الكلمات . أدارت رأسى. فأجبت فى غضب وألم
وقهر:

- لا أصدق أن بدرية. حبيبتى. بل زوجتى الوفية.. هى التى
تقول ذلك، رباه.. رد إليها صوابها!

واستدارت إلى الشرفة، ولمحتها تمسح دمعة بطرف شملتها، ثم استدارت نحوى بسرعة غريبة، وعقدت ذراعيها حول صدرها، وقالت بصوت واهن أجش:

- أتريد أن أقول لك ماذا يعنى هذا؟ وأن أقول لك كل شىء؟
فابتلعت ريقى وقلت:

- أجل. أريد أن أسمع كل شىء، لأضع حدا لهذا الوضع.
وأطرقت وهى تقول فى أسى ومرارة:

- كنت أمشى على ضفاف النيل، أستروح النسمات، وإذا بنبرات صوت على مقربة منى فى متنزه، جعلنى أرتجف. وكان صوت رجل يتكلم مع سيدة، لعلها زوجته، أو خطيبته، أو خليلته، لا أدرى وكانت العبارة التى قالها بالحرف «إن هذا الكاتب وضيع، إنه يعمل على إفساد أخلاق الناس، بأسلوب وقح، وناعم ومثير». ونطق باسمك، وقذف مجلة فى مياه النهر، لمحت من غلافها أنها مجلة «الأهداف» العدد الأخير الذى كتبت فيه قصتك الجنسية. الفاضحة!!

أحسست بعرق بارد يغطى جبينى، مسحته بأصابع متشنجة.
وتمتعت:

- هذه اهانة.. ستدفعين أنت ثمنها!

ورمقتها بنظرة ثاقبة، واحمر وجهها حتى حاكى لون الدم،
ويعد هنيهة صار ناصع البياض كأنه دمية من الرخام الأبيض،
ثم قالت في هدوء قاتل:

- ألم تطلب أنت أن تسمع كل شيء؟! ومع ذلك لك أن
تطمئن.. فلن أعيش معك بعد الليلة!

دارت بى الأرض، أحسست كأننى فى أرجوحة مسعورة
ترتفع بى إلى عنان السماء ثم تهبط بى حتى أعماق الأرض،
وتراقصت أمام عيني عشرات من آراء علماء الجنس، إنهم
جميعا يؤكدون أن الغريزة الجنسية غريزة شريفة، وأنها أعمق
وأسمى وأقوى الفرائز الانسانية ، وأن الكاتب يستطيع أن يعالج
فوراتها الجنونية بلا إثارة تذكر ، فلماذا أعالج قصصى عن
الجنس من زاوية الإثارة؟

ومضت برهة أحسست بعدها أن زوجتى مصيبة فى رأيها،
وأنتى اخترت لوناً من ألوان الأدب خطره مدمر إن لم أكتب كل
حرف بحكمة.. وسمعت هاتفاً قويا يدوى فى أذنى: أمامك
الحياة. أمامك الناس ومشكلاتهم. أمامك النبع الكبير.. فلماذا
تغترف من بركة ضحلة أسنة؟!!

وأخفيت وجهى بين راحتى وتمتمت فى ندم:

- بدرية . أعتقد أنك لن تنسى حبنا و.. وعشرتنا الطويلة .. و

.. و ..

وأحسست بلساني يجمد فى حلقى، ولمحت فجأة عيني بدرية
تبهتان كأنما كانت تحتضر، وقالت بصوت تغشته بحة حنان:

- إن الشيب وخط رأسك، ومع ذلك فأنت ماض فى تدمير
أخلاقيات الناس.. لم أعد أحتمل، لم أعد أطيق أن أسمع سب
زوجي.. الحبيب بأذنى!

قالت ذلك وانهارت فوق المقعد، وأخذت ترتجف، وشحب
لونها شحوبا مروعا، فأسرعت نحوها ملهوقا، وقلت فى حنان
بالغ:

- بدرية. حبيبتي.. إنك لم تذكرى لى شيئا فى هذا المعنى،
وربما تركتيني أخطو فى طريق النجاح وأنا مغمض العينين،
الشيء الوحيد الذى لاحظته هو أن تشجيعك لى لم يعد كما
كان، فلم أسأل ، قلت لنفسى ربما فتر حبها لى لسبب لا أدريه.
وسيعود أقوى مما كان، تركتك لتعودى وحدك، وإذا بى
أكتشف.. يا للهول!!

وأطرقت بدرية لحظة، ثم رفعت إلى وجهها صفا لونه، وقالت
بصوت هادئ مترن:

- ثق يا حمدي أن حب بدرية لك لم يفتر أو يتغير، ولكن وصفك الدقيق للجنس، وما سمعته بأذني.. كل هذا جعلني أحس كأنني أعيش مع قاتل لأجيال، أجل يا حمدي.. فإن الكتابة عن الجنس أخطر على المجتمع من أفكك الجرائم! أرجو أن تضع لجاما على لسانك، أن تتصب حارسا على شفتيك لئلا تكون كلماتك معولا لهدم سلام نفسك.

قالت كلماتها الأخيرة بوهن، وأخفت وجهها بين كفيها، وأحسست أن بدرية أيقظت في نفسى ضميرا هجعا، وإحساساً ركداً، ونفساً ركنت إلى أضواء المجد فلم تعد تفرق بين ما ينفع وما يضر.

و.. وأمسكت القصة الجديدة ومزقتها وألقيت بها في مياه النيل.. ثم استدرت نحو بدرية وحدجتها بنظرة تكاد تصرخ في طلب الغفران!!!

أسرة طيبة

عندما فرغ من قراءة الرسالة التي وصلتته من ابنة خالته «سلوى» كان الانفعال قد بلغ به مداه، فطواها بين كفيه، وعركها بأصابع متشنجة، وحقق في الفضاء، وقد استولى عليه شعور غريب من الذهول والانقباض.. كانسان سقط فجأة من علياء المجد ولاقى صنوف المصائب!!

فقد رفضت سلوى أن تقترن به لأنه «وحش» وكأنما أبت إلا أن تسدد إلى قلبه طعنة قوية قاتلة، فرددت هذه الكلمة في أكثر من موضع من رسالتها، ثم أعربت له بعد ذلك عن تمنياتها الطيبة بالتوفيق مع فتاة غيرها، قالت في نهاية رسالتها.. أعذرني يا كمال، فأننا لم أفكر في الزواج حتى الآن، ولا أريد أن أرتبط به، ومن الخير أن تبحث لك عن فتاة أخرى.. أتمنى لك معها السعادة من قلبي!!

ومضت برهة أفاق بعدها كمال من ذهول المفاجأة، وأحس

بالرجفة تسرى إلى كل عروقه، واصفر وجهه حتى غدا أكثر شحوبا من وجوه الموتى، وسقطت الرسالة من بين أنامله فوق المكتب، وتندت عيناه بالدموع، وكلمة «وحش» تدق رأسه كالمنطار وتتراقص هياكل حروفها أمام عينيه.

لقد رفضت سلوى أن تقترب به لأنه وحش، قالت رأيها فيه بصراحة وقعت في نفسه كصدمة الحجر.. ولكن.. ما هو ذنبه؟. انه لا يستطيع أن يغير أو يبدل من خلقته، ولو كان الأمر بيده حقا، لما قنع من جمال الطلعة بأقل من حسن يوسف، ولكن الله جلت قدرته هو الذى خلقه وسواه على هذا الشكل!

وبينما هو فى غمرة من الأحزان، تتطاير نظراته بين جدران ونوافذ المكتب، كمن يودع أعز أمانيه وأرق أحلامه، وثبت إلى ذهنه فجأة فكرة لم تدم سوى لمحة البرق.. فكرة الاقتران بجارته نجوى.. إنها فتاة لطيفة ورقيقة، شاهدها أكثر من مرة وهى تقف بمفردها أو مع أمها فى الشرفة، ولكنه لم يدرس أخلاقها، أو يفكر فيها، لأن عواطفه كلها كانت مع سلوى!!

وغادر كمال مكتبه، وأفكاره كلها تدور حول جارته، التى برزت بغتة فى سماء حياته كالنجم الساطع، وبيدت فى لحظة كل ما ترسب فى قلبه من يأس، ولكن.. من أداره أن جارته تقبل

أن تقترن به؟! أو ليس من الجائز أن تنقلب الفتاة الهائدة
الخاشعة إلى بركان يقذف الحمم عندما يتقدم إليها .. و..
وشكله وحش؟!

ورسم الخيال لأعصابه المضطربة أنه تقدم لخطبة نجوى
بالفعل، وأنها تقف شامخة معترزة بجمالها، ثم ترفض طلبه
ونظراتها تسطع بقبس من التهكم، فانكمش على نفسه، وشعر
بالأرض تميد من تحت قدميه، وأنه كحيوان أصابه سهم فى
الصميم، وانطلقت من حلقه زفرة حرى، وتمتم لنفسه بصوت
أجش مختنق:

- يا للغباء!! إن هذا لم يدر بخلدى، وإذا كانت سلوى وهى
من أقرب الناس إلى، رفضت أن تقترن بى لأنى وحش.. فما
بالك بفتاة غريبة!!

ودخل كمال المنزل، وهاتف القبول من جارته كزوج، ينعش
قلبه، ويثلى فؤاده، واعتلى درج السلم وثبا، وخلع ملابسه، وتناول
طعامه، وفتح نافذة مسكنه، ليدرس أخلاق جارته ولو عن كتب.
وفوجئ برويتها تقف فى الشرفة وقد اتجهت بوجهها نحو
السما، كأنها فى لحظة تأمل.. صامته خاشعة، كأنما قد
صعدت نفسها إلى أسمى طبقات الايمان والصفاء والزهد.

وشعر كمال بأنه لا يستطيع أن يحول بصره عنها وهى بهذا الوضع، أما الفتاة نفسها، فقد كانت لاهية عنه بالتطلع إلى السماء. وخيل له وهو يرقبها بامعان، أنها تعاني من حزن عميق. فبعد برهة أخفت وجهها بين يديها، ولمح جسمها كله يهتز. فلما رفعت يديها عن وجهها، وجد عينيها تفيضان بالدمع. ونظرت نحوه واضطربت بكامل هيأتها، وكاد توازنها يختل.. وتلفتت حولها فى حيرة، وبدت على شفقتها بسمة خفيفة، وكأنما خجلت من نفسها فخبأت وجهها ثانية!!

هذه الحركة جعلت كمال يشعر بأنه يهوى جارته بقلبه.. بروحه.. بوجدانه. ولكن، كيف السبيل إلى الوصول إلى قلبها؟ وبينما كان يفكر فى ذلك رأى الفتاة تنظر نحوه وتبتسم. كأن.. كأن بصرها لم يقع عليه إلا فى هذه اللحظة! وأحس بقلبه ينبض بشدة من فرط الانفعال، وقال بصوت ينم عن وافر الخجل «مساء الخير».

أوشكت الفتاة أن تفقد توازنها وهى تسمع صوته وراحت تحديق فيه، ولكن نظراتها لم تكن تعبر عن شىء، وإن بدت مضطربة. ووقف يحديق إليها بدوره كأنما أسرته عيناها، ومضت فترة قبل أن تشيح عنه، وتقول فى تزمّت.. «مساء الخير!!».

واستدارت إلى الداخل ونادت بصوت خافت مفعم بالألم قائلة
«أمى . أمى؟».. أين أنت. ولما لم يجيبها أحد، استولى عليها
الاضطراب، ورفعت صوتها وكررت النداء «أمى . أمى.. أين أنت
يا أمى؟!»:

ولم يفهم كمال معنى لذلك كله. فعاد إلى الوراء خافض
الرأس، وراح يسائل نفسه عن معنى هذا النداء، ومعنى تلك
النظرات التى كانت تحفل بالأمل حيناً.. والخوف والرعب
أحياناً!!

ومضت برهة سمع بعدها كمال صيحة مختنقة صادرة من
الشرفة، وأعقب هذه الصيحة صوت التحام أجسام، مما ينبىء
بوقوع صراع بين شخصين، فهتف لنفسه: مامعنى هذا؟. وعاد
إلى النافذة ولكنه لم يجد أحداً، فاستدار إلى فراشه وأطلق
لأفكاره العنان!

وقبل غروب الشمس أطل كمال من نافذته وكادت تنفلت من
حلقه صيحة سرور عندما وجد أن جارته تقف فى نفس المكان،
وهى تنظر إلى نافذته.. ولكن سرعان ما تلاحقت أنفاسه، وهو
يرى ذلك الوجه الذى يجمع كل براعة الطفولة بيبكى. وهتف لنفسه
فى التياح: ما معنى هذا؟ فتاة صغيرة.. مليحة رشيقة تبكى

وتهتز كورقة في مهب الريح.. شئ لا يكاد يصدق العقل!!

ومع هذا التناقض أحس كمال بحب جارته يغزو قلبه، ولكن كيف السبيل إلي الوصول إلى قلبها؟ بل كيف يستطيع أن يعقد بينها وبينه أسباب الصلة وهي التي اضطربت من مجرد سماعها لصوته؟ هل يذكر لها أن الجو لطيف، وأن السماء صافية الزرقة؟ ولكن.. هل يستطيع هو أن يفعل هذا؟! هل يجرو على هذا وهو الذي لم يختلط أو يتحدث إلى فتاة غريبة قط؟!

إنه قد يستطيع أن يلفت نظرها إليه حقا، بالغزل: أو بوسيلة أخرى، ولكن هل يجوز لمن كان في مثل سنه وثقافته، أن يقوم بمثل هذه الحركات التي يعتبرها هو نفسه دون مستوى الخلق القويم؟! لا. لا. إنه لا يستطيع أن يهبط إلى مثل هذه الحركات التي لا يفعلها إلا صغار النفوس.. والأوفق من هذا كله، أن يتلمس الطريق من أبوابه الطبيعية.. فيذهب إلى أسرتها ويطلب يدها فإن تم الرضا كان بها ونعمت، وإن رفضت فإنها لن تكون قد أسأت إليه أكثر من قريبته!

وفى المساء توجه كمال إلي أسرة نجوى، وهناك تلقاه الأب والأم والابن الأكبر للأسرة في ترحاب لم يكن ينتظره. وفي حجرة الجلوس؟ رفع كمال رأسه وهم بالحديث، ولكنه أطرق

وأحس بنفسه يغوص فى الأريكة، وكانت المسألة بالنسبة له فى منتهى الدقة، وكان يتوقع من الأسرة أن ترفض طلبه، أو على الأقل تقابل رغبته بفتور.. وربما ألقى القدر عليه درسا قاسيا فى صورة لكمة من الفتاة نفسها، بأن تشير إلى قبحه، فمن ذا الذى يستطيع أن يمنعها من ذلك؟ أو لم تجهر ابنة خالته بمثل هذا الرأى؟!

واستيقظ من أفكاره على ترحيب الأسرة، واستعداد محياه سكينته، وحقق فى الأب وقال بصوت أجش مضطرب:

- لقد جئت فى طلب يد كريمكم نجوى...!!

قال ذلك وانكمش على نفسه كالفار المذعور، بينما حدجه الأب بنظرة ثاقبة ثابتة وقال بصوت هادئ متزن:

- أتمنى أن أرى ابنتى عروسا تزف فى هذه اللحظة!!

ولاحظ كمال أن الأم عندما سمعت قوله أطرقت فى اكتئاب واضح، ثم أخذت تضحك، إلا أن ضحكها لم يكن طبيعيا، فقال على الفور وهو يحدق فيها:

- إن نجوى فتاة طيبة ومهذبة.. و..

وقال الابن وهو يتفرس فيه بامعان:

- هل عرفت نجوى قبل أن تبادر بمثل هذا الطلب؟!

فرمقه وأجاب فى حماس بالغ:

- أجل، رأيته، وعرفتها، ورضيت بها كزوجة لى...!!

وراح الأب والأم والابن يتبادلون النظر فى صمت وأحس كمال بالكثير من الحرج وغطس فى الاركة وأخرج المنديل من جيب سترته، وجفف العرق بعصبية، بينما قال الابن فجأةكمن يستيقظ من نوم عميق:

- أريد أن أعرف متى رأيت نجوى.. وكيف؟!

كان يتكلم بعزيمة وحزم يدلان على أنه يتقرب منه تفسيراً كاملاً فى الحال، فقال كمال بثبات.

- رأيته فى الشرفة، وعرفتها من الشرفة، كئى انسان يرى جارة له يعجب بأخلاقها، ومن الطبيعى أن تكون الخطوة التالية ما ترونه الآن .. أنا مهندس و.. و..

وارتج عليه الكلام فلاذ بالصمت، بينما قال الأب وهو يتخلل لحيته البيضاء بأصابعه الطويلة النحيلة.

- أيها الشاب، ليس فينا من يستطيع أن يغشك، وعلى هذا الاعتبار ينبغى أنؤكد انك غير موفق فى فى هذا الاختيار. إن

ضميرى.. إن.. ابنتى.. أوه. لا أدري ماذا أقول...!!

وأطرق الأب فى صمت، وسمع كمال زفرة أليمة أدرك أنها صدرت من الأم، كأنها تترجح تحت ثقل أو هم خفى. ثم رفعت إليه عينين تفيضان بالدمع، وقالت فى أسى.

- أه يا جارنا العزيز! ما كنت أجرو على أن أتصور وجودك هنا من أجل هذا الطلب!!

وفى الحق إن كمال لم يفهم شيئاً من هذا الحديث، وتوهم أن الأمر ينصب كله حول التهرب من قبحه، فشعر كأن شيئاً كالنار يندلع من حلقه ويلسع وجهه، ومع ذلك فقد رمقها وأجاب فى هدوء:

- لقد سمعتم طلبى ولا أجد ثمة ما يدعو للتكرار، أو ما يدعو لإطالة الجدل فيما يشبه الألفاظ!!

ومال الأب نحوه وقال فى صراحة وطيبة.

- اسمع أيها الشاب. لو رأيت ابنتى فستعدل حتما عن طلبك، وما دام قصدك شريفاً، وحضرت إلى هنا وأوضححت طلبك بلا مداراة فإن الخطوة التالية يجب أن نبدأها نحن، وهى أن ترى الفتاة بعين رأسك. وتتأملها جيداً قبل أن ترتبط بها ارتباطاً كاملاً.. حتى إذا أردت الانسحاب جاز لك أن تفعل ذلك بلا أدنى

حرج، ولكن.. لى شرط واحد، وهو أن ابنتى ستحضر مجلسك
لتراها عن قرب فاذا رغبت فيها فهذا شأنك وحدك، أما إذا لم
ترغب فيها كزوجة لك.. فإن الشئ الوحيد الذى أرجوه منك..
هو أن تتسحب فى هدوء!!!

ولكن كمال خيب ظن الشيخ وقال فى رنة فرح:

- سيدى لا أجد ما يدعو لإحضار نجوى، فقد رأيتها
وشاهدتها أكثر من مرة كما سبق لى أن قلت، ولم أحضر إلى
هنا إلا بعد الاقتناع التام بأنها الفتاة الوحيدة التى تصلح
كزوجة لى!!

وتفرس الشيخ لحظة فى وجه الشاب ثم قال بصوت هادئ
مكتئب:

- لست من رأيك. إن رؤية العروس تقليد متبع من زمان.
ونحن من جانبنا قررنا القبول لا لشيء إلا اعجابا باستقامتك
وسماعنا صوت صلاتك.. والكلمة الآن لنجوى!!

وجاءت نجوى مستندة على أمها، ووقفت لحظة تحديق نحوه
فى صمت، وقد عقدت ذراعيها حول صدرها. وبعد أن هز كمال
رأسه علامة الرضا، وسمعت نجوى الغرض الذى حضرت من
أجله، قالت بصوت أجش مختنق:

- ولكن.. يا سيدى..إنتى .. إنتى .. يا للعذاب .. إنتى ..كما ترى !!..

وما أن فرغت من هذه الكلمات، حتى ألقت بنفسها على صدر أمها كطفل، وراح جسمها كله يهتز، وأجلستها الأم والدموع تهطل من عينيها بغزارة، وطأطأت نجوى رأسها وانحدرت من عينيها دمعتان جريتا فى صمت على طول خديها، وفى هذه اللحظة فقط.. اكتشف كمال أن جارته عرجاء و.. ونصف عياء!! وأمام هذا المنظر الحزين، اندفع إليها وتمتم فى تأثر.

- نجوى. أنا لم أحضر إلى هنا على سبيل اللهو والتسلية، وإنما لكى أؤكد انك الزوجة الوحيدة التى اخترتها بنفسى!!

وما كادت تسمع ذلك حتى تقلص محياها الوسيم ولكنها بعد برهة أطرقت بشكل ينم عن الرضا!! وعندما كان كمال فى طريقه إلى الخارج، وضغط الأب كتفه برفق، وتمتم وهو يحدق فيه.

- ابتسم لها دائما يا ولدى، ابتسم لها.. ولنفسك، فالابتسام يزيل آلام القلوب!

بداية المعركة

دخل الضابط والجندي فناء مدرسة المدينة قبل منتصف الليل، والتفت الضابط إلى الجندي ثم قال - تعال هنا بعيدا عن منطقة الضوء، حتى لا نجلب المتاعب لحارس المدينة.

وأخرج الضابط ورقة من جيب سترته، وعاد نحو منطقة الضوء بحذر يركز بصره على الكتابة وقد زم حاجبيه وهز رأسه، وعاد إلى الجندي مسرعا، وقال في هدوء. - ستصبح قرية بأكملها معرضة للدمار. وهذا أمر فظيع، لا يحتمل. لابد من اتخاذ قرار في الحال!

وتوقف الضابط، وحدث فيه، فقد كان عليه طبقا للأوامر التي صدرت إليه أن يبعث بهذا الجندي إلى قرية بعيدة، ولكنه جريح، فهل يستطيع أداء هذه المهمة؟! وتفرس في وجه الجندي، كأنه

يزن قوة احتماله، وأخيرا قال فى يأس:

- يجب أن تصل إلى قرية «سيدى بوصوف» قبل ظهر باكر.
إن الأمر خطير للغاية. إن المستعمرين سيقومون بحملة غادرة
عليها، ويجب أن يتنبه لذلك أهل القرية، ليكونوا على تمام
الاهبة.

قال الضابط ذلك، وعيناه تومضان كاللهب، ثم رمق الجندى
وأردف:

- إن الدماء تفرق كم سترتك أيها الجندى، ومعنى ذلك...

فأبرقت عينا الجندى، وقال:

- وأعلم أن الرصاصة لاتزال مستقرة فيه من أثر الموقعة
التي انتهينا منها على التو، ولكن حق الوطن أجدر من حقى فى
الحياة.. لاتنسى أننى جندى فى معركة.

وحاول الضابط أن يستبقى الجندى ويستبدله بآخر، ولكن
الجندى لم يترك له مهلة للتفكير إذ تراجع خطوتين، ثم وقف
أكثر انتصابا من ذى قبل وذراعا إلى جانبه، وأدى التحية
العسكرية.

وتنهذ الضابط، وتقدم نحو الجندى ولمس كتفه بئامله، وقال
وهو يحدق فيه باشفاق:

- اذهب والله معك.. وإن تيسر لى العثور على جندى آخر قبل
الفجر فسأبعث به قى أثرك.

...

وعبر الجندى آخر شارع من شوارع مدينة وهران بعد
منتصف الليل، ومشى على ساحل البحر الأبيض وهو يئن..
وماسورة البندقية المعلقة فى كتفه الأيسر تتلاطم فوق ظهره مع
كل خطوة، وخيال المعركة المنتهية مع قوى الاستعمار التى
خاضها مع رفاقه فى قلب مدينة وهران تلوح لعينيه فى عرض
الطريق، ورائحة البارود لا تزال عالقة بأنفـه كأنه لم يزل فى قلب
المعركة.. أيفلح فى الوصول إلى القرية والرصاصـة لاتزال
مستقرة فى ذراعه؟ وإذا هاجمه ذئب متوحش فهل يستطيع أن
يصوب إليه فوهة البندقية؟

ويدأ الفجر ينبـلج، وأنواره تتسع وتمتد، وتكشف عن سلسلة
من الوديان بعضها مغطى بالروابى وأشجار الزيتون والبعض
الآخر تكسوها أمـراج قاتمة.

وبعد ساعة من سير يشبه الركض أحس الجندى فجأة
بذراعه يؤلمه.. وبالتعب يتسلل إلى قدميه، فتوقف لحظة يلتمس
التشدد، ولكن سرعان ما عاد إلى السير وهو يتمتم لنفسه

بصوت أجش:

- كلا لن أتوقف.. لن أستسلم للضعف. لن أمكن المستعمرين
من مباغته أهل القرية.

كان يضغط على الحروف كأنه يلوكها فى فمه، وهو يمشى
ويمشى، والرياح تزار من حوله، مختلطة بعواء الذئاب الضالة
فى الحقول والأمراج، وقطع الثلج تتساقط على السهول الممتدة
أمامه وتغطى الأرض، وشعر بالظما، فتوقف عن المشى، وهز
«الزمزمية» فوجدها فارغة، وتلفت حوله فى يأس، ليس أمامه
سوى الوديان، والبحر الملح الأجاج!

وأخيرا وصل إلى صخرة عملاقة تمتد جذورها حتى أعماق
البحر نمت عند حوافيها بعض الأعشاب، فرمقها وتنهَّد وجلس
على نتوء بارز منها ليسترد أنفاسه اللاهثة، وتلفت حوله بتوجس
ولكنه لم يلمح انسانا، فافتر ثغره عن بسمه راضية، وامتدت يده
اليسرى إلى حقيبة من القماش الأصفر مدلاة الى جانبه الأيمن،
وأخرج منها منظاره المكبر وراح يرمق جوانب الطريق الذى
قطعه فى ساعات قرأى السفن عن بعد كدمى صغيرة فوق
صفحة البحر الهائج، والقوارب قرب الشاطئ ترتفع وتنخفض،
وتتمايل وتهتز، كأنها قطع صغيرة من لعب الأطفال.

ووضع المنظار فى الحقيبة وهو يتنهد ارتياحا وأخرج مرآة
مكسورة مسحها بكم قميصه الممزق وراح يحرق فى وجهه على
ضوء النهار الجديد، كان مشعث الشعر، نامى اللحية، ممتقع
اللون، ممزق السترة، ولكن لابأس مطلقا.. فإن هيئة الجندى
المحارب يجب أن تكون هكذا.

ورمق البحر، وهز رأسه، وتمتم: لا بأس.. لا بأس مادام قد
كبد الأعداء خسائر فادحة، ومادام قد أدى واجبه بما يرضى
نزعة الحرية فى نفسه التواقة إلى الحرية.

ودس المرأة فى الحقيبة، ودارت أنامله فى جوانبها، وخرجت
تقبض على كسرة جافة، رمقها وتمتم فى اغتباط «لابأس بها
مطلقا، إنها قطعة من العيش - الفينو - فيها رائحة من مربى
الأمس، وهذا وحده كاف لأن يجعلها مستساغة الطعم، بل
ولذيذة». وقضم منها قزمة راح يمضغها بتلذذ، ومن وقت لآخر
يتلفت حوله بتوجس حتى لا يؤخذ على غرة وهو جريح وضعيف
لايستطيع أن يقاوم طفلا! وقرية سيدى بوصوف لاتزال على
رمى البصر!

وتلفت حوله كأنه يبحث عن مكان يمكن أن يجد فيه جرعة ماء
تطفى ما يحسه من ظمأ، ولكنه لم يجد غير الأمراج، والقرية

التي يقصدها تبدو أمامه كقطعة سوداء عن بعد، وماء البحر
لا يصلح للشرب، لقد ترك مدينة وهران في غلس الظلام؛ ونسى
أن يملأ «الزمنية» بالماء، ورمى البحر وتمتم:

- يا لها من قسوة! إن الماء هنا لا يروى الغلة، والمستعمر
هناك يسفك دماء البشر بدون مبرر!

وظهرت في الأفق سحابة كبيرة قاتمة راحت تتحرك ببطء
نحو الغرب، وظلت تكبر وتمتد مع بزوغ الشمس حتى أصبحت
كطائر ضخم يسد الأفق بأجنحة منشورة حمراء، وشعر بشيء
يخزه في عضلة ساعده، فأغمض عينيه، وتمتم:

- رباه.. كم أتمنى لو أصبحت مثل هذه السحابة، أجوب
الدنيا لأقضى على الشر.

وكأنما تيقظ على حقيقة شأنه.. فضحك ضحكة عالية، وتمتم:
- أوهام.. أوهام! لا بد أنني أصبت بالحمى.

واستطاع الجندي أن يسترد قواه وحاول النهوض، لكن آلام
ذراعه! اشتدت عليه فجأة، فتعقد جبينه، وقوس ذراعه أمام
صدره بجهد، وراح يحرق فيه من خلال كم سترته الممزق، لقد
توقف النزيف، لاشك في هذا.. فالدماء جافة، ولكن الرصاصة لا
تزال مستقرة فيه، بعد أن تركت في عضلة ساعده فجوة بشعة

حمراء كفف الوحش.

واختفت السحابة أمام حرارة الشمس، واختفت معها أيضا
بسمة الجندي من فوق شفتيه، فإن الرصاصة لاتزال باقية،
والحمى بدأت تدب فى جسده، يجب أن يستخرجها قبل ساعة
على الأكثر وإلا ساعات العاقبة، واضطر لبتر الذراع بأكمله.

وانتفض لهذا خاطر كما ينتفض العصفور فى ليلة شاتية،
ونفض وواصل سيره مدى برهة، ثم استدار نحو السهول
الممتدة أمامه، وراح يدقق البصر فى الأعشاب النامية
والأحراش المتكاثرة، واستقر بصره على شجرة لبخ، تنهض عند
أول حقل للشعير، فلاحت على وجهه علامات الرضى، إن
الشجرة قريبة من القرية، وهناك يستطيع أن يعنى بجرحه.

وسار يخترق الأمراج رافعا رأسه إلى السماء، والأوراق تلطم
وجهه، والأعواد الجافة تتقصف تحت قدميه، وفجأة وجد نفسه
أمام نهير ضيق سريع الجريان، فركع فوق ضفته وغسل وجهه،
وشرب وشعر بالقوة تدب فى جسده، ومشى فوق حافة النهير
قاصدا شجرة اللبخ، وارتفعت على كثر منه سعلة جافة،
فارتجف.. وجمدت ملامح وجهه فجأة وتقبضت أصابع يده على
قبضة البندقية وصوبها نحو مصدر السعلة، ومشى بحذر ليرى

ماهنالك، وقد تبخرت من رأسه الآلام والجوع.. وأصبحت كلها
نافهة القيمة أمام الأخطار التى تحقق به وبأهل القرية.

- أهو جاسوس؟

تمتم بذلك لنفسه، وراح يتفرس فى الأمراج، ويدقق البصر
فى رعوس الأعشاب العالية، ولكنها كانت تغطى الأرض على مد
البصر، متكاثفة، ومن بينها كانت تظهر رعوس الصخور كأنها
قمم جبال غاصت فى الأرض من قديم الزمن: إن جيشا بأكمله
يستطيع أن يختبئ هنا.

هتف بذلك لنفسه، واقترب من المكان الذى يمكن أن تكون
قد صدرت منه السعلة، وراح يتفرس فى كل شبر حوله، وفى
الأعشاب التى كانت تهتز تحت هبات الريح، ولكن لم يكن هناك
سوى الصمت، فازدرد ريقه وتمتم:

- ليس هنا كائن حى.. ربما خدعتنى أذنائى، أجل.. لابد أن

سمعى قد أصبح ثقيلًا من الجرح.

لم يجد أحدا، أو يسمع صوتا، فواصل سيره إلى شجرة
اللبخ، وهناك جلس، وأخرج مدية وقطعة من القطن والشاش
الطبي وزجاجة صغيرة تحتوى على كمية ضئيلة من صبغة
اليود.. وأشعل نارا فى كومة من القش، وغرس طرف المدية بين

اللهب، ثم شق كم القميص بأسنانه حتى الكتف، وظهر جلد ساعده، وتناول المدية الحامية، وتحسس مكان الرصاصة بطرفها، وأغمض عينيه وهو يغرس طرف المدية المدبب فى لحم ساعده، وخرجت من حلقه أنه مكتومة وسقطت الرصاصة فوق التراب، وتدفق الدم ساخنا حول الجلد، فأزاله بقطعة من القطن المعقم، وطهر الجرح وضمده، وعندئذ فقط شعر بصفير فى أذنيه، وبدوار شديد، واصفرت المرئيات أمام بصره، وراح يتأوه كمن يعانى من آلام لا يطيقها كائن حى!

وصوب بصره نحو القرية، لقد أصبح على بعد كيلو متر واحد فقط منها.. واطمأن إلى أنه يستطيع أن يصل قبل الموعد بساعتين على الأقل، ولكن لماذا لا ييكر فى الذهاب؟ وهم بالنهوض.. ولكنه لم يستطع أن يتحرك من مكانه، فاستند إلى جذع الشجرة بظهره وأغمض عينيه ريثما يسترد قواه.

وسمع حركة فتلفت حوله فى جزع ورهبة، ولكن سرعان ما احتلت شفثيه بسمة كلها عطف وحنان، فقد رأى غلاما يقف بالقرب منه يتأمله فى إعجاب، وقد راح شعره الناعم الأسود يتطاير مع النسيمات التى كانت تهب من ناحية البحر باردة رطبة.

واقترب منه الغلام والبسمة المشعة لاتزال عالقة على شفثيه،
وركم أمامه وقال فى شبه ابتهاال:

- هل أنت جريح ياسيدى؟

فأجابه الجندى وهو باسم الثغر:

- أجل، ولكنه جرح بسيط ياولدى.

قال ذلك وندت عنه أنة مكتومة أفصحت عن مدى آلامه، بينما
أحس الغلام بقلبه ينتفض من داخل صدره، وقال وقد شع من
عينيه بريق الإشفاق:

- يخيلى إلى أنك منهوك القوى، فى حاجة إلى الراحة التامة،
أليس كذلك؟

ومشت أنامل الجندى فوق شعر الغلام، وقال وهو يحاول أن
يكتم آلامه دون جدوى:

- كلا ياولدى العزيز، يجب على الجندى أن يتحمل كل شىء،
كل شىء حتى ولو كانت آلامه فظيعة لاتطاق!

فقال الغلام وكل عضلة فى وجهه الناحل ترتجف:

- لقد رأيتك عند صخرة الشياطين السبعة، وخفت أن تكون
من الأعداء فنقتلنى، لعنة الله على الاستعمار فى أى مكان تحت

السماء.. فأينما ذهب ينساب الموت مع خطواته!
وترقرقت دمعة فى مآقى الجندى، وقال وأنامله تداعب خد
الغلام فى حنو:

- إن من يقتل غلاما بريئا مثلك لا يعد من بني البشر!
وتراقصت الحيرة على وجه الغلام، ولم أطراف معطفه الرث،
وجلس القرفصاء وقال بارتباك:

- ولكن جنود الاستعمار تقتل الاولاد وتطارد الشيوخ، وتبقر
بطون النساء.

فأجاب الجندى وهو مطرق واجم:
- انهم وحوش يا ولدى، يفعلون ذلك تحت قوة دنيئة اسمها ..
اسمها .. أعتقد أن «الصوصية» أنسب اسم يطلق على هذه
القوة!

وتلفت الغلام حوالياً فى خوف، ثم ركز بصره على وجه
الجندى وقال:

- أجل أيها الجندى، فإن هذه القوة تجعلهم أكثر ضراوة من
وحوش الغاب، فلتنزل اللعنة بهم! لقد بقروا بطن أمى وهى تحلب
عنزتها أمام الدار، ومزقوا وجهها وربطوها من عنقها فى ذيل

حصان أحد شياطينهم وجرى بها شوطا بعيدا ولم يتركها إلا
وهى كتلة من اللحم المشوه.

فصاح الجندى ووجهه يتقبض بعصبية:

- وحوش.. وحوش.. ليست لهم قلوب تهتز بالرحمة.

وعاد الغلام يقول بتهدج:

وكما تخيلت منظرها عاودنى البكاء.. ويلهم.. إن صورة
عذابها تملأ السموات والأرض، وأعتقد أن اللعنة ستحل بهم إلى
يوم القيامة، وسيهيمون على وجوههم فى فجاج الأرض، وفى
الآخرة سيخلدون فى النار.

فقال الجندى محاولا أن يغير الحديث حتى لايبكى الغلام:

- وأين أبوك الآن؟

ونهنه الغلام فترة تماك بعدها أعصابه وقال:

- قتلوه! قتلوه وهو فى الحقل.. وأخذوا بقرتنا الوحيدة
واقتلعوا أشجار الزيتون التى كنا نقتات من ثمارها، كل شىء
قبيح فعلوه بلا وازع من ضمير.

وغامت الدنيا أمام وجه الجندى.. وتمتم بصوت باك:

- وأنا أيضا يا ولدى.. فقدت ولدا طيبا، قتلوه أمام عيني لأننى

رفضت الاعتراف لهم بمكان الجنود، ولو قتلوني من أجل ذلك
لما اعترفت.

ورمق الغلام الجندي في دهشة، وقال:

- مسكين أيها الجندي.. كيف يقوى قلبك على احتمال هذا
المنظر؟!

فهز الجندي رأسه وتمتم:

- كما احتمل قلبك الرقيق منظر موت أمك!

ورمق الجندي معطف الغلام الباهت الرث، وثبت بصره على
أزراره التي بدأت تتشقق وتجرب، واستطرد يقول بتهدج:

- وكذلك قتلوا زوجتي، لم يرحموا أحلامها السعيدة وهي
تتخيل مولودها المنتظر، لقد ذهبت الزوجة ومعها الطفل قبل أن
تكتحل عيناه بنور الحياة، شيء فظيع للغاية أن تموت زوجة وهي
في قمة أحلامها.

ومسح الغلام دموعه تدلت فوق خده المصفر، وتمتم:

- إنهم كلاب، بل إنهم أخسأ من ذلك وأدنى وألعن، لقد قتلوا
كلبي الصغير عنتر.. أردوه رميا بالرصاص لأنه كشر عن أنيابه
عندما رآهم يقتلون أمي الحبيبة، فياللعار، ياللعار جيل القرن

العشرين إن لم يطهر العالم من وباء الاستعمار أمام أجيال
القرون الآتية!

وحقق الجندي فى الغلام وقال فى دهشة مقرونة بالاعجاب:
- أجل يا ولدى.. يا للعار.. ولكن ما أحلى وما أعذب أن يلعب
الاستعمار من غلام مثلك!

ومرة أخرى راح الجندي يرمق معطف الغلام فى أسى، بينما
لاحت على وجه الغلام يسمة مريرة وتدلّى بصره إلى معطفه ثم
حدق فى الجندي وقال مزهوا:

- إنه معطف قديم ولكنه جيد، لقد حصلت عليه من سيدة
كريمة محسنة عندما وجدتني أرتجف من برد الشتاء.

ونظر الجندي إلى الفضاء، والحقول المترامية الأطراف، ثم
حدق فى وجه الغلام وتنهد وتمتم:

- إن نفوسنا تتحرق شوقا إلى الحرية حتى نستطيع أن نزرع
حقولنا ونجنى ثمار أشجار الزيتون فى أمان.

- كلنا أيها الجندي نتطلع إلى الحرية ولكي نحقق الحرية لأبد
من مواجهة المعارك والموت حتى...

وصمت الغلام فجأة، وقد اتجه ببصره نحو البحر، فقال

الجندي بصوت حالم:

- استمر يا ولدي.. فإن حديثك الشائق...

فصاح الغلام مقاطعا:

- صه أيها الجندي، انظر هناك ناحية البحر، إنه أحد جنود المستعمرين إنه جاسوس، يظهر ويعدده الدمار.. القتل.. لانريد لأحد من أهل القرية أن يقتل، لأن من السهل أن تقتل.. ولكن ليس من السهل أن تبعث من يقتل إلى الحياة، والقرية في حاجة إلى جهد كل فرد، لانريد اليتم لطفل، فقد ذقت مرارة ذلك، دبرني أيها الجندي.. ماذا نفعل؟

وانتصب الجندي وحدق ببصره ناحية البحر، وتمتم:

- يا للأسف! لا أستطيع أن أواجه هذا الشيطان، إن ذراعي يؤلمني. بل لا أستطيع أن أحركه، أو أوجه فوهة البندقية نحو هذا الوحش، هيا بنا نختبئ بين الأمراج وننظر ماذا يتم.

وتصلبت ملامح الغلام فجأة، وقال بثبات:

- دعني أرفه عن نفسي بالانتقام من هذا الوحش، لأبي، وأمي، وكلبي عنتر!

وتصفح الجندي وجه الغلام، وقال باشفاق:

- هل يستطيع فأر منك أن يؤذى مثل هذا البغل؟

فقال الغلام بأنفة وشموخ:

- فلنجرب! ربما استطاع الفأر أن يأتي بنتائج باهرة في مثل

هذا الموقف الحرج!

وعندئذ قال الجندي باسم:

- أحقا تستطيع هذه اليد الآمينة الصادقة أن تحكم الهدف؟

وخطف الغلام البندقية من الجندي على حين فجأة وقال

بثبات وهو رافع الرأس:

- إننى لن أكون ولدا طيبا إذا عدمت المهارة فى قتل هذا

الآثم فى الحال... إننى أسمع صوت أمى... صوت أبى... صوت

الشهداء... تتنادى على من وراء عالمهم المجهول، قف مكانك

أنت... إن هذا القدر يتجسس، ليس فى ذلك شك... ويجب القضاء

عليه فى الحال.

وقبل أن يفيق الجندي كان الغلام قد غاب بين الأمراج

كالهر، فانطلق نحوه مادا ذراعيه، ولكنه لم يعثر له على أثر،

واندفع الجندي بين النباتات وهو يئن، وبعد أن قطع مسافة

طويلة فى اتجاه الغلام، توقف وهو يلهث، ورفع رأسه بجهد،

ليرقب تطور المعركة عن كثب، ولكنه لم يلبث قليلا حتى اعتراه

الندم، لأنه سمح للغلام أن يواجه وحشا!

وكاد قلب الجندي يكف عن الخفق وهو يلوح ماسورة البندقية تمتد من بين النباتات، وهي تلمع في نور الشمس كما تلمع رغبة الانتقام في قلبه، وتحيله إلى أتون متوهج: أه لو أفلح في القضاء عليه، أنه سيحتويه بين ذراعيه ويقبله وقد أخذ بقوة وطنيته، ونسى أن يبلغ أهل القرية، وهذه هي بؤادر غفلته.

ورفع رأسه أكثر، وشعر بقدميه تغوصان في الأرض، ويقبله يكاد يكف عن الخفق، فقد رأى الجندي يتجه نحو الغلام: يا للشريير.. لو انفرد بالغلام فسيقضى عليه حتما، وسيعمل «السونكي» في بطنه حتى تتدلى أحشاؤه في الأمراج.. أغيثه يا رحمة الله.

هتف بذلك من أعماقه، وارتفع صوت طلق، وتلا آخر.. وآخر.. انقبضت ملامح الجندي، لابد أن الغلام قد أصيب يجب أن يراه في الحال.. وراح يحبو بين النباتات النامية بحذر. وشعر بالأم لا تطاق في ذراعه. وبوخز الأشواك النابتة بين الأعشاب وهي تنغرس في راحتيه، حتى تمزقنا وسالت منهما الدماء، وبالرغم من كل ذلك، فقد واصل زحفه تحت طاقة جبارة من قوة الإرادة ليرى ما حل بالغلام.

وبينما كان يواصل زحفه بإصرار! ارتد فجأة إلى الوراء
مذعورا، وبقي في مكانه متجمدا بلا حراك كمن قد تيبست
أعضاء جسده، وقد اتسعت حدقتا عيناه رعبا وفزعاً، وانغrust
أنامله في الأرض الضحلة وقد ثبت بصره على ثعبان هائل
الحجم، وطوى نفسه مرتين واندس في الأمراج بلا صوت في
سرعة الومض.

وتتم الجندى بفزع:

- يا الله.. ما هذا؟

تمتم بذلك لنفسه في انبهار وصدره يعلو ويهبط كمرضى
يجود بأنفاسه الأخيرة، ووقف ومسح العرق المتصبب فوق
جبهته، وكادت تنفلت من حلقه صيحة فرح عندما وقع بصره
علي الغلام.. كان طريقا بين الأعشاب، وأناته الخافتة لاتكاد
تسمع، والدم يتدفق بغزارة من ذراعه الأيمن.

وانحنى عليه وتمتم:

- أنت بخير يا ولدى؟

وتحرك رأس الغلام، وثبت بصره على وجه الجندى، وانفجرت
شفتاه عن بسمه مضيئة، وتمتم :

- أجل .. شكرا لك.. فقط ذراعى آه.. أحس كأنه تحطم

تماما، ولكن يسرنى أن أذكر لك أنني قضيت على الجندى.. إنه على بعد خطوات.. جثة هامدة.. ويندقيته ملقاة بجانبه فلا تنساها.

وامتدت أنامل الجندى إلى ذراع الغلام يتفحصه، فصرخ صرخة مروعة وأدرك الجندى أن ذراعه قد أصيبت برصاصة فى العظم.. وأنها.. يا للهول محطمة.

ورفع الجندى رأسه ، وتلفت يمنا ويسرة وهو متجهم الوجه، لابد من حمل الغلام والتوجه به إلى القرية فى الحال والاساءت العاقبة، ولكن.. أيستطيع أن يصل به إلى القرية دون أن يراه أحد؟

وأدار بصره نحو البحر ، وراح يرمق الجهات بمنظاره المكبر، وجحظت عيناه على أشباح جنود الاستعمار وهم فى الطريق إلى القرية، ليس هناك أدنى شك فى أنهم سيغيرون على القرية فى خلال ساعة أو ساعتين على الأكثر.. وتمتم لنفسه بخوف:

- لابد من حمل الغلام فى الحال.

وبلا تفكير حمل الغلام فوق كاهله، لم يعبأ بصرخاته ولا أناته، بل انطلق به فى جنون اليأس من الخلاص من بين فكى

وحش مفترس يطارده.

وراحت أعواد النباتات اليابسة تتقصّف تحت قدميه، وتحدث
قرقعة مختلطة بأنات الغلام الباسل، الذى يبدو أنه قد أدرك
أخيرا فداحة ما ينتظر أهل القرية من خطر، فراح يقول بصوت
أجش:

- تشجع يا سيدى.. لقد ابتعدنا كثيرا، إنهم لن يلحقوا بنا
على أية حال!

وفى شارع ضيق من قرية سيدى بوصوف تجمع الناس حول
الجندى والغلام وهو يصيحون:

- ماذا جرى.. ماذا جرى؟

وعلت الأصوات، وتكاثر اللغط.. وبرز رجل فى مقدمة
الصفوف، ورمق الغلام، وقال:

- ماذا بك أيها الغلام؟

وتوقف الجندى، وراح يقول بصوت متقطع لاهث وهو يرمق
صفحات وجوههم:

- أنظروا إلى هذا الغلام؛ لقد أنقذ حياتى، تحققوا من
ذراعه.. أنه سيصبح عاجزا مدى الحياة ما لم تسعفوه .. إن

المستعمرين يقتربون من قريبتكم.. وسيدمرونها بلا جدال،
سيقتلون أولادكم ويقتلون نساءكم ويأخذون مواشيكم
ويحرقون حقولكم، ويقتلعون أشجار الزيتون من جذورها لقد
جئت لأبلغكم رسالة الاستعداد لملاقاة المستعمرين ومقاتلتهم
حتى الموت، أنتم لاتستحقون الحياة مالم تدافعوا عن حريتكم
بقوة الساعد، لن تكونوا رجالا مالم تنذروا عن أنفسكم فى
استبسال هلموا.. هلموا إلى البحر.. إن المستعمرين هناك،
وعما قليل سيصلون إلى القرية مالم تواجهونهم فى الأحرار!
وأدار الغلام عينيه فى الوجوه، وقال بثبات:

- قل لهم يا سيدى إن الاستعمار وقع لا يمنح الحرية لشعب
مستضعف!

- وصاح رجل كهل فى حماس:

- الحق ماقلت يا ولدى.. سأبعث بك إلى طبيب على نفقتى
فى الحال.

وقال آخر:

- اشهدوا يا أهل قرية سيدى بوصوف. لقد حرمت من
إنجاب الأطفال ولكنى سأبني هذا الغلام، ساكتب له ما أملك..
إنه قوى يستطيع أن يشرف على الحقول والأبقار، ويحرس

أشجار الزيتون، وينمى الثروة.

والتفت الغلام نحو المتحدث وأجاب:

- الأوفق من كل ذلك أن تعطى ما يفيض عن حاجتك من
أملك لفقراء هذه القرية، فليس من شك أن بينهم من هو أكثر
منى احتياجاً.

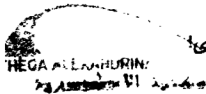
وصفق أهل القرية، وعاد الغلام يقول بصوت واهن:

- ولكنكم لم تتأهبوا بعد للقاء المستعمرين؟

وبعد لحظات، كان أهل القرية يحملون سلاحهم فى الطريق
إلى البحر، والنساء يحملن فى أيديهن الاعلام الصغيرة
والمناديل البيضاء الرقيقة وهن يهتفن بالنود عن الحرية
ورمقهن الغلام وصاح:

- لن تستعبد بلدى.. وفيها مثل هؤلاء الرجال المدججين
بمختلف الأسلحة ولا مثل أولئك النسوة اللاتي يقابلن الكفاح
والبشر يعلو وجوههن.. أليس كذلك أيها الجندى؟

وغاب الغلام عن عيني الجندى فى طريقه إلى الطبيب،
وعندئذ فقط تهاوى إلى الأرض ورمق أهمل القرية الذين ابتعدوا
عنها بنظرة تكاد تنطق :



بالأمس انتهت معركة .. واليوم بدأت أخرى

HEGA ALLAN HURIN

١٤٩٠ هـ

صدر من هذه السلسلة

- ١- مختارات من الشعر العامى..... شعر
- ٢- قصائد مصرية..... شعر
- ٣- صوت البرية..... قصص
- ٤- دراسات أدبية..... تأليف: حسين عيد
- ٥- الزمن الحرام..... شعر: محمد الشرنوبى شاهين
- ٦- كتاب الأمكنة والتواريخ..... شعر: عبد العزيز موافى
- ٧- أول الجنة أول الجحيم..... قصص: سعد الدين حسين
- ٨- ضل من غوى وسر من رأى..... شعر: صلاح اللقانى
- ٩- الزهرة الصخرية..... رواية: محمد الراوى
- ١٠- سليمان الملك..... شعر: محمد سليمان
- ١١- دائرة النور والظلام..... قصص: محمد علوان
- ١٢- مكتوب على باب القصيدة..... أشعار: عماد غزالى
- ١٣- صباح الحب الجميل..... قصص: رفقى بلوى
- ١٤- انفلات..... قصص: مصطفى الأسمر
- ١٥- فى ذاكرة الفعل الماضى..... شعر: محمد صالح الخولانى
- ١٦- قطوفها وسيوفى..... شعر: سمير درويش
- ١٧- أولاد المنصورة..... رواية عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
- ١٨- الحصار..... قصص: وفيق الفرماوى

-
- ١٩- احتمالات..... شعر: مفرح كريم
- ٢٠- ثلاث دقائق للأجلاس..... قصص: فتحى فضل
- ٢١- طائر الشمس..... شعر محمد مهران السيد
- ٢٢- بكات الدم..... قصص: حجاج حسن
- ٢٣- صلوات خاصة..... قصص: عبد المنعم الباز
- ٢٤- مكابدات سيد المتعبين..... شعر: السماح عبد الله
- ٢٥- الأمثال فى الكلام تضىء..... قصص: محسن يونس
- ٢٦- زهرة اللوتس ترفض أن تهاجر.... شعر: محمد محمد الشهاوى
- ٢٧- كتاب الوقت والعبارة..... شعر: محمد آدم
- ٢٨- عودة السيد عدنان..... مسرحية شعرية: طه حسين سالم
- ٢٩- المرسى والأرض..... رواية: فريد محمد معوض
- ٣٠- تقاسيم..... شعر: محمد كشيك
- ٣١- حلم السلك البعيدة..... قصص: على عيد
- ٣٢- أى حوائج معنى..... شعر: حسن النجار
- ٣٣- عملية تزوير..... قصص: رجب سعد السيد
- ٣٤- قيس..... مسرحية شعرية د.أنس داود
- ٣٥- طفلة بتحبى تحت سقف الروح..... شعر طاهر البرنبالى
- ٣٦- يهبط الحلم بصاحبه..... شعر: عبد المقصود عبد الكريم
- ٣٧- إنها تومى لى..... شعر: رفعت سلام
-

- ٣٨- الهامشي والبحر..... رواية؟ أحمد عبد الله متولى
- ٣٩- حكاية بهية..... شعر: محسن الخياط
- ٤٠- العسكري ٦٥٠٦٥..... قصص: شحاته عزيز
- ٤١- من أروقة الغابة..... قصص: محمد عبد الله عيسى
- ٤٢- الإمامه والنهر..... شعر: أحمد الحوتى
- ٤٣- عجائب يازمن..... شعر: إيمان بكري
- ٤٤- فى مدينة الوجوه القصدير..... شعر: جميل عبد الرحمن
- ٤٥- بصمات منقوشة بالحنين..... شعر: عبد الدايم الشاذلى
- ٤٦- قطرات من شلال النار..... شعر: فوزى خضر
- ٤٧- اغنية بلا وطن..... شعر: يس الفيل
- ٤٨- مذكرات شاب..... قصص: صبحى مراد متى
- ٤٩- وردة الكيمياء الجميلة..... شعر: على منصور
- ٥٠- الرؤيا والوطن..... شعر: صلاح والى
- ٥١- بعض الوقت لدهشة قصيرة..... شعر: وليد منير
- ٥٢- من دفتر الصمت..... شعر: محمد عفيفى مطر
- ٥٣- طفل الجبل الملتهب..... قصص: سناء محمد فرح
- ٥٤- فاطمة..... شعر: عزت الطبرى
- ٥٥- ٨٢-١١-١٦..... قصص: جمال نجيب التلاوى
- ٥٦- حرير الوحشة..... شعر: أحمد زرزور
- ٥٧- كففك..... قصص: هدى جاد
- ٥٨- لحظات فى زمن التيه..... قصص: السيد نجم
- ٥٩- بئر الأحباش..... قصص: عبد العال الحمامصى
- ٦٠- تحورات البحر..... قصص: فؤاد مرسى

-
- ٦١- الدوامة.....رواية: كمال مرسى
٦٢- حالات من العشق.....شعر: فؤاد سليم مغنم
٦٣- كان يوم صعب جدا.....مسرحية: هشام السلاموني
٦٤- قلب الوردة.....قصص: مصطفى أبو النصر
٦٥- العاشق والنهر.....شعر: د.صابر عبد الدايم
٦٦- شارع البير.....رواية: مصطفى نصر
٦٧- العصب الحاير.....ابراهيم رضوان
٦٨- الرياح.....عبد الشافي داود
٦٩- فك الحزن.....وجيه عبد الهادي
٧٠- كتابة الظل.....محمود نسيم
٧١- سأعود متأخرا هذا المساء.....محسن خضر
٧٢- تأويل مرثية تجيء.....شعر: أحمد أبو زيد

اصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

* ضمن اهتماماتها المتعددة بالنشاط الثقافى بمختلف أشكاله،
تعنى الهيئة بإصدار عدة سلاسل من الكتب هي:

أولاً: سلسلة «أصوات أدبية»

- مخصصة لإبداع أدباء مصر فى كل مكان فى الشعر، فى القصة
فى الرواية.

- تصدر اسبوعياً.

ثانياً: سلسلة «كتابات نقدية»

- تواكب الإبداع الأدبى بالدراسة والتحليل، ولا تغفل النظريات
النقدية والعربية والعالمية. وتفتح صدرها لكل فكر جاد يتسم بالطابع
النقدى

- تصدر شهرياً، فى منتصف كل شهر.

ثالثاً: كتاب «الثقافة الجديدة»

- يتناول حياة أبرز المفكرين وأعمالهم وأنوارهم فى إضاءة العقل
والوجدان ودراسة تحليلية لإنجازاتهم فى خدمة الفكر والإبداع
العربى.

رابعاً: سلسلة «مكتبة الشباب»

- تأخذ على عاتقها مهمة التثقيف العام بتقديم كتب مبسطة تتناول
مختلف ألوان المعرفة.

- تصدر أول كل شهر

خامساً: كتاب الأدباء

- يهتم بتقديم الواقع الثقافى والإبداعى لكل إقليم على حدة ويُعد
بمثابة بانوراما كاشفة لحركة الإبداع الأدبى فى أقاليم مصر.

- يصدر شهرياً

رقم الايداع ٩٤/٨٤٧٨ع

I.S.B.N.

977-235-227-3

مخاوف صغيرة

* مجموعة من القصص للكاتب «محمد المندى» وهى -
على ما يبدو - المجموعة القصصية الأولى التى صدرت له.
ومنها معالجات قصصية التزمت بالإطار التقليدى للقصة
القصيرة؛ تعددت موضوعاتها؛ وتنوعت مصادر التجربة
الابداعية فيها. والكاتب يحاول من خلال مجموعته، الوقوف على
الأبعاد التى تشكل ملامح شخوصه القصصية؛ والعلاقات التى
تربط بينها، وبين الواقع المعيش؛ بقضاياها المتلاحمة والشائكة.

736
72



0522936